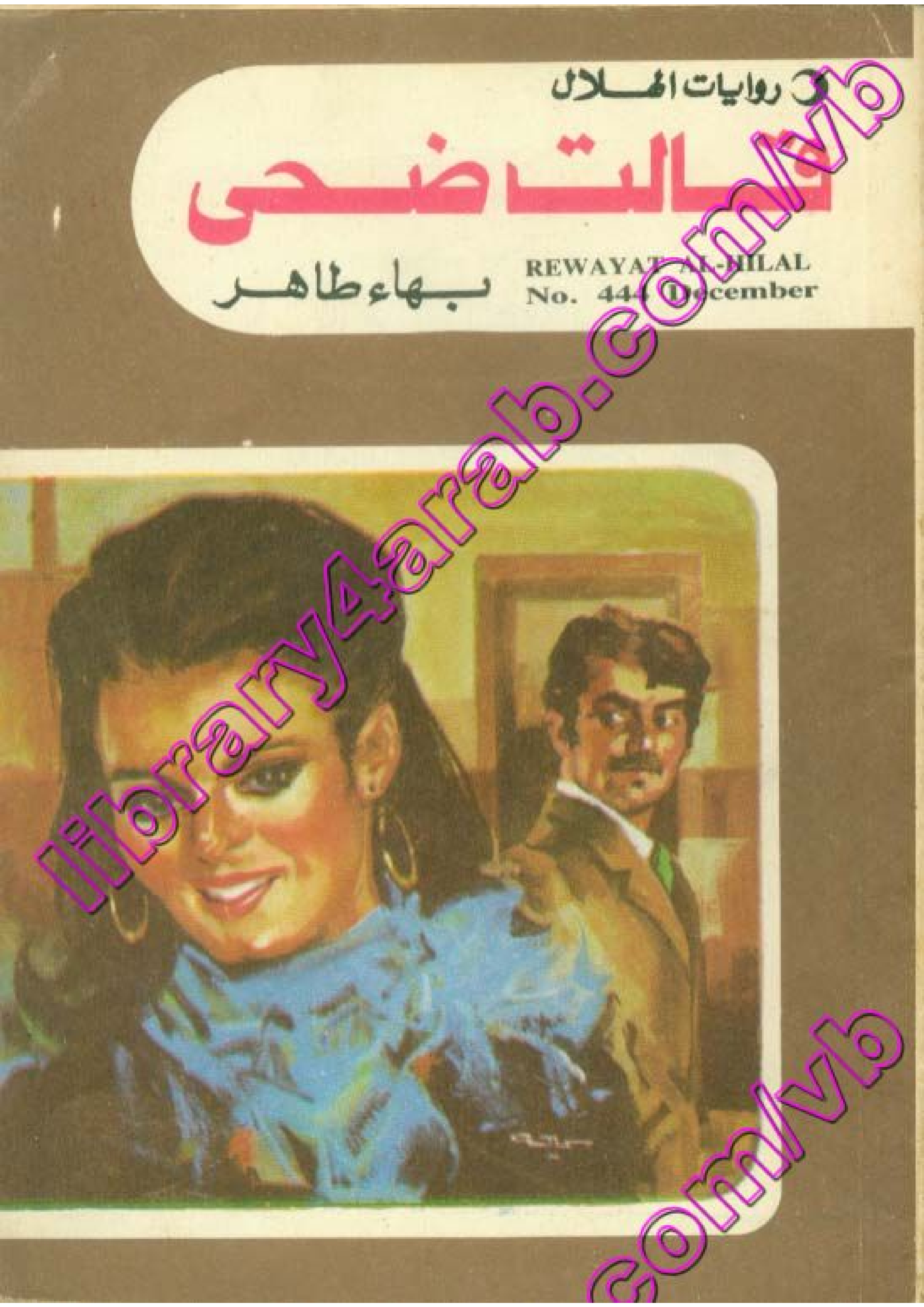

روايات الهلال
قالت ضحى
بهاء طاهر
REWAYAT AL-HILAL
No. 444 December

روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٤٤ - ديسمبر ١٩٨٥ - ربيع الثانى ١٤٠٦
No. — 444 — DECEMBER 1985

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر .

سوريا ١٤٠٠ ق . س . لبنان ١٤٠٠ ق .ل . الاردن ٦٠٠ فلس . الكويت ٦٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلس . السعودية ٧ ريالات . تونس ١٥٠٠ مليم . الخليج ١٢٠٠ فلس . الصومال ١٣٠ بنى . لاجوس ١٢٠ بنى . عدن ١٤٤ سنتا . لندن ١٥٠ سنتا . اثينا ٢٠٠ دراخمة . كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠ سنت . استراليا ٦٠٠ سنت . السودان ٢٥٠ ق . سودانى . المغرب ١٥٠ فرنك . غزة والضفة ٧٥ سنتا . داكار ١٠٠٠ فرنك . اليمن الشمالية ١٥٠ بنى . ايطاليا ٣٥٠٠ ليرة .

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين



قالت ضحى

بقلم

بهاء طاهر

دار الهلال



"قالت ضحى" قصة بديعة ، بارعة الجمال .

وجمالها يأتى من أن بهاء طاهر يؤرخ فيها ، بذكاء وبلمسات ناقدة جارحة ورقيقة معا ، لحقبة مضطربة وملتبسة من حياتنا ، بما فيها من آمال عريضة واحباطات عميقة ، يؤرخ لقاهرة الستينيات بمعالمها التى اندثرت وكأنه بقوة الفن والحب يريد أن يبتعثها فتبقى ابدا وبمزاجها السياسى والاجتماعى الذى اندثر ايضا كأنما يريد أن يثبته فى جو من الرثاء والحيرة معا ، لكنه فوق ذلك يؤرخ لتقلبات الروح والفكر عند ابطاله ، وللهوى المشبوب الذى يحلق بقلوبهم ويمزقها ويطوح بها فى شباك من العطب والمجد معا .

بهاء طاهر صانع كبير من صناع ادبنا الحديث .

و"قالت ضحى" نقطة تحول فارقة فى مسيرة صنعته الجادة الملهمة معا ، من حيث الصياغة ومن حيث الرؤية معا ، بلا انفصال ممكن بين الصياغة والرؤية .

منذ ان نشر بهاء طاهر اولى قصصه التى جمعها فيما بعد فى مجموعته "الخطوبة" وحتى كتب قصته الشهيرة "بالأمس حلمت بك" كان عالمه هو عالم الكابوس الصاحى المحدد الماثل أمامنا - وفى داخلنا - بحياد صارم ، عالم القهر البارد اليدين الذى يسحق النفس على مستويات عدة ، من غير نبرة عالية واحدة ، من غير اى تهدج أو اصطخاب ، وكانت فى هذه المرحلة تكاد تكون تقريرية ، حيادية ، متزنة الايقاع ، خارجية ، بمنأى - تماما - عن جيشان العاطفة وعن حدة النغمات . وان كانت - مع ذلك - تشى بانفعال محكوم ودفين وغاضب .

فى تلك المرحلة كانت النظرة الهادئة التى لاتقع تقريبا الا على ما هو خارجى واضح المعالم ، تكتم فوران الغضب والاحتجاج تماما ، لكى تذكيه وتؤرقه ، وتنفى عن عمله كل صلة بالاغوار الداخلية الحميمة للنفس كأنما بهذا النفى نفسه تشير اليها ، من طرف خفى ، وتشير مكامنها دون أن تمسها ، فقد كانت لغته مطهرة ، تلمع بنور متكافىء الاضاءة ليس فيه أدنى احتدام ، ولكنها طول الوقت "لغة قناع" ، نورها الهادىء الواعى يكشف ظلمه كابوس القهر على مستوياته النفسية والاجتماعية معا .

وكأنما بانقضاء حقبة الستينيات ، وعقابيلها فى السبعينيات ايضا ، استطاع الكاتب ان يكسر قبضة الحصار - فى اللغة وفى الرؤية - وانشرخ قناع الحيادية الخداع ، وخامر العمل دفء الشعر وحرارة التورط ، وتنحت الرصانة القاسية - قليلا - أمام اختراق الغرابة وتقلب الشجن وتجسد الرمز ، ورفرفت اجنحة الاسطورة - من بعيد - على ساحة المشهد الفنى التى مازالت - مع ذلك - مرصودة معالمها بدقة الصنعة القادرة .

ومنذ "بالأمس حلمت بك" حتى "انا الملك جئت" و "شرف النخيل" أصبح ممكنا أن تتضافر عناصر النظرة الخارجية الثاقبة ، والحوار اللامع ، مع تموجات الحلم الغامضة وشجن النجوى الحميم ـ هذا التضافر المتوتر ، القلق ، هو اساس مايميز المرحلة الثانية من عمل بهاء طاهر ، وما يعطى "قالت ضحى" خصوصيتها .

● ● ●

"قالت ضحى" هى قصة احباط الآمال التى نيطت بحقبة تاريخية معينة فى حياتنا ، حقبة الستينيات بما جلجل فيها من شعارات مدوية وما تحقق فيها من تغيرات اساسية وما كانت "تنذر به رغم ذلك من شر مكتوم" ، ومع الادانة المفصح عنها يتردد فى القصة نداء شجن "بطلب العدل" ورثاء حزين امام "مرض العدل" ، وهى قصة التوتر الصعب بين الحلم بالعدل الاجتماعي وبين الحب القاهر المسيطر من ناحية ، وبين استشراء العطب فى قلب الحلم ، وتفشى الفساد فى قلب الحب . وهو توتر ينتهى ـ فى داخل القصة ـ بتفاؤل محزن لأنه مستدعى ، ومطلوب ، تفاؤل غريب عن جسم القصة لأنه موضوع من صنع الارادة وحدها ، ومنتزع من الأسطورة وحدها

"ايسيت (ايزيس) رحلت لكنها ستعود .. فرسا بيضاء جامحة فوق الصحارى الصفر من وقع خطاها ينبت الزرع من جديد وتتطاول الأشجار"

التوتر ـ أو الصراع ـ من أبرز خصائص فن القص عند هذا الكاتب ، لأن السجية المسرحية هى من أهم سجايا هذا الفن ـ بها طاهر هو مؤلف المواقف المركبة وغير المحلولة تماما ، ومؤلف الحوار الذكى الحصيف الذى مهما بدا من سلاسته وتدفقه وعفويته يحمل اكثر من دلالة ، ويتشكل من أكثر من نغمة .

وفى هذه القصة على الأخص ليس هناك موقف واحد ـ ولاواحد ـ ينبسط امامنا ببساطة ، أو يعطينا نفسه على وجهه السافر ، أو يخلو من طبقة خفية تناقضه وبذلك تثريه ، حتى مواقف تحقق الحب وازدهاره تأتينا مشدودة ومثقلة ومتجاذبة الأطراف ليس فيها دعة ولا استنامة .

فى مواقف اكتمال الحب بين الراوية ـ الذى لانعرف اسما له إلا أنه يلقب "فاوست" ـ بين ضحى ـ ايسيت ، تقول ضحى "بصوت مكتوم ومتوتر نعم أنت لم تتعهد شيئا وانا لم اتعهد شيئا ولكن هذا ما حدث فلا تقل اى شيء" وتضحك وتقول انا سعيدة وقد استتار وجهها وان علقت به الدموع .. ويغوصان معا بعد ذلك فى قلب الموجه التى تغوص الى قرار بعيد .. ثم تقذفهما الموجة الى قمتها بينما يرتجف القلب ويرتعد الجسد وتسأله الا تعرفنى ؟ بنبره مستغربة تكاد تكون عاتبة .. وفى هذه الموجة تقول له : لاتبتئس .. سأجمع اشلاءك من جديد وستكتمل فيقول لها لست أوسير ولكن اشلائى فى صدرى .. وكان الموج يغلى فى السديم .

هو ليس اوسير المخلص الحكيم قطعا ، بل أوسير الممزق اشلاء ، وهو ايضا ليس فاوست ، لأنه مهما قامر بروحه من أجل حبه ، فاننا سوف نرى ، فى النهاية ، أنه لم يخسر روحه .

الحب فى هذه القصة ـ وفى مجمل عمل هذا الكاتب ـ ليس بريئا ابدا ، ولا هو صاف مزدهر بشمس نقية ابدا ، بل ملتبس ، مركب ، متوتر حتى فى اكتمال تحققه . هو حب فاوستى ، فادح الثمن ، ومن رهائن "الشيطان" الطبقى .

وتلك خصيصة فى كل العلاقات المتشابكة فى هذا العمل .

صداقته مع حاتم ـ مثلا ـ صداقة عميقة ومقوم اساس من مقومات وجدان هذا الراوية العذب ابدا والممزق ابدا ، ومع ذلك فان الخيانة تضرب بشريانها الخبيث فى جسم هذه الصداقة ، لاتلغيها ولاتقتلها ، هذا الحل من شأنه ان يجعل الامور ساذجة ، بل تحتوى الصداقة على خبث الخيانة ـ من الجانبين فى النهاية ـ وتعيش معه ، بل تغتذى منه وتزداد قوة ووثاقة به .

وبدرجة أقل .. ولكنها ليست اقل وضوحا ـ تتركب علاقة الراوية بسيد (وسيد يكاد يكون رمزا وان لم يقض الرمز عليه تماما) من عنصرى تجاذب وتنافر يعملان عملها طول الوقت ، ولك أن تستشف ذلك فى كل العلاقات ، وكل المواقف ، فى القصة ، ولو كانت ثانوية او مؤيدة ، على نحو مانرى فى علاقته بأبيه ، وأمه وأختيه ، ووكيل الوزارة سلطان بك ، وهكذا ليس ثم تسطح المواضعات القالبية المأخوذة على وجهها ، بل غنى التركيب والتقلب والجيشان الذى نعرفه فى الحياة والذى نجده هنا مصوغا بصنعة ماكرة وملهمة معا .

هذا ما اعنيه بالسجية المسرحية فى عمل بهاء طاهر ومن خصائص هذه السجية ايضا ان الحوار هو الاداة والوسيط الفنى الأساسى فى هذا العمل .

أن القصة تجرى كلها بضمير المتكلم الفرد . ولكنه ليس ضمير النجوى الفردية الذاتية التى نذكرها فى الأعمال الرومانتيكية ، على العكس المتكلم الفرد ـ الراوية ـ يعتمد ثلاثة أوجه أو ثلاث طرائق للحوار :

الوجه الأول هو طريق السرد ، والحكاية التى تبدو موضوعية ، تقليدية ، تروى حكاية أو تصف مشهدا ، أو ترصد مايجرى ، أو تتذكر ماجرى ، أو ترسم اشخاصا ، وعلى هذا المستوى نجد مرة اخرى كل انجازات بهاء طاهر : اللغة المتنزهة التى تكاد تكون مجردة وحيادية ، الاقتصاد البارع ، اللماحية ، الموسيقية الهادئة ، والسلاسة التى تبدو عفوية ولكنها مشغولة شغلا دقيقا بتوازن دقيق .

والوجه الثانى يندرج تحت الوجه الأول وهو متضمن فيه ومنفصل عنه فى آن . أعنى وجه الحوار الذى يجرى على سننه التقليدية : قال ، قالت ، وقلت . ويمكن ان نعتبره تنويعا على الوجه الأول وامتدادا له ، ومن ثم ففيه كل خصائصه ، بتجديد أكثر ، وتحميل أكثر لتعدد الدلالة ، ومقدرة اكبر على صنع المفاجأة من خلال الجمل الحوارية غير المتوقعة .

وفى تضاعيف هذا الحوار يمكن أن تأتى "الحكاية" أو " أستعادة الحكاية" أو "حكاية التفكير أى تقليب اوجه قضية وتقرير موقف ، كأنما هى كتل الجليد ـ من غير برودة ، بالعكس ـ الطافية على تيار نهر متدفق ، لايظهر منها الا القليل وتوحى بجسمها وجرمها الكبير الغارق تحت سطح الحوار .

ولعل حاتم ، صديق الراوية الملتبس ، زعيم الطلبة فى القديم ، الذى لا يمكن اعتباره انتهازيا مهما كانت من مسايرته للأوضاع ، المخلص المتخبط الذى يبدو أنه يعرف طريقه تماما مع ذلك ، الى آخره ـ لعله هو الذى يفيد تماما من هذه التقنية ، فى حكايته ونشأته ومتاعب عائلته مثلا ، ثم فى حكايته لمتاعبه الفكرية وتحليله التاريخى ـ الشخصى ـ لتطور مسار الثورات (الفقرة ١٩)

ولكنها تقنية شائعة فى القصة كلها ، يفيد منها الراوية كما تفيد ضحى ، ويستخدمها سيد كما يستخدمها الدكتور ، وهكذا .

أما الوجه الثالث للحوار ـ بضمير المتكلم الفرد ـ فهو الذى تتميز به المرحلة الثانية من عمل هذا الكاتب . وهو ما يمكن ان نسميه "النجوى الشاعرية" حيث تتخذ الحلم ، والرمز ، والأسطورة ، والمجاز ، مكانها ، أخيرا ، بعد أن كانت قد نفيت تماما فى المرحلة الأولى من كتابات بهاء طاهر

السمة المفاجئة فى هذا الوجه من الحوار أنه يأتى موجها الى المخاطب ، اى أنه يتخذ شكل التوجه بالخطابات المباشر الى طرف ثان ، سواء كان غائبا ـ على نحو نجوى الراوية الى حبيبته فى لحظات الاحتدام الحميم والفقدان الموجع كأنه نداء ، أو كان الطرف الثانى حاضرا كأنه غائب مع ذلك ، على نحو نجوى ضحى اذ تروى اسطورتها الخاصة عند ما توحدت بايزيس ، وتتجه بهذا الخطاب الى الراوية الذى يكاد يتدخل فى الحوار

وهذا الوجه الثالث هو الذى يحمل ، وحده تقريبا ، كل شحنة الشاعرية وهو وحده الذى يفور ، بعيدا عن اطار الشكل الحيادى التغريبى ، الى المناطق الحميمة الجياشة بالحب والرمز واصداء الأسطورة .

من أمارات البناء الموسيقى المحكم فى هذه القصة ان هذا الوجه الثالث أن النجوى الحميمة المحتدمة ، تأتى فى منتصف القصة تماما ، هى بؤرة القصة وسرتها المركزية ، ولبها الغائر .

بعد أن تطرد القصة على سننها المألوفة ، ويمضى السرد الحوارى ـ أو الحوار السردى ـ على وجهه ، وبعد أن نعرف الأشخاص ونتابع الاحداث ، وتتصاعد حبكتها فى خطوطها المتراكبة بحذق حتى نصل الى ذروتها ، وبعد ان تشرق العلاقة بين الراوية وضحى ، فى مشهد من أجمل مشاهد القصة الحديثة ، امام نافورة متألقة بحبات ماء بللورية ، وفى محضر ثروة من الأزهار ، وبعد ان تأتى لحظة اكتمال العشق التى لن ترجع ابدا ـ فقد كانت الشمس فى طريقها للمغيب ، فجأة تغوص القصة فى منطقة الشعر والأسطورة ، منطقة ترتادها نجوى الراوية اذ ينادى حبيبته ويريد أن يسترجعها ، والراوية ـ فجأة ـ ينفصل عنا ، لايعود يتحدث

الينا ولايعود ينقل الينا مادار ومايدور من حواره ، بل هو يتحدث فقط الى حبيبته ، يخاطبها ، يناديها ، وتكشف له عن سرها الاسطورى ، هما وحدهما الآن ، اما نحن الذين كان يخاطبنا ويحكى لنا ، فقد نفينا . لم يعد لنا ـ نحن الذين كنا معه ـ حضور .

وفى هذه النجوى المتبادلة بين الحبيبين نعرف ، نحن ، شيئا من جوهرنا ، كما نعيش ، معهما ، جوهرهما .

ومن هذه النقطة المحورية يبدأ انهيار العلاقة ، ويتضح تدهور الامور ، وتسير القصة فى خط هابط وغائر باستمرار ما نحو عطب العلاقة وتضافرا مع فساد الامور على المستوى الاجتماعى والسياسى .

ذلك أن الهم الاجتماعى والسياسى لم يفارق القصة لحظة واحدة ، لأنه هو ـ لاغيره ـ مناط العمل كله . "السياسة مأكله ومشربه" . ولم ينسها قط وبأكبر قدر من التبسيط فان شفرة القصة الحقيقية هى التوازى ـ بل الاندماج ـ بين بنيتين اساسيتين : علاقة الحب ، على المستوى الشخصى (والأسطورى ؟) وطلب العدل ، على المستوى السياسى والاجتماعى ، (والأسطورى أيضا ؟) .

والخط الذى يربط بين البنيتين ويضفرهما خط صاعد من الأمل والشغف ، والبحث ، ومقاربة التحقق ، فى بؤرة القصة ، ثم هابط نحو الاحباط ، والاجهاض ، والعطب ، والفساد ، والتردى ، ويأتى استرجاع اسطورة ايزيس واوزيريس (ايسيت وأوسير) لكى يجمع بين هذين المسارين ، لكى يحل المأزق حلا خارجيا ، باستدعاء الأسطورة . وهو حل يأتى فقط باستدعاء موضوع ، ولاينبع من مسار العمل نفسه .. ولذلك فهو حل حزين .

★ ★ ★

ومع ذلك فلا أريد أن أقول أن الشفرة فى هذا العمل الفنى البديع ، مبذولة ، ومتاحة وسهلة الفك . ففى غمار هذا العمل ـ شأن كل عمل فنى حق ـ مناطق حية ومتوهجة تتأبى على التشفير ، وتلهمها لوعة متوهجة تستجيب لها لوعاتنا ولواعجنا ، وتتحقق لنا نشوة المعرفة الصعبة

ولكن مشهد الاجهاض الذى يأتى مباشرة بعد بؤرة ازدهار الحب ، اجهاض ضحى ، فيزيقيا ، عضويا ، ومدمرا للعلاقة ، لايكاد يبدو لنا وليد الصدفة البحتة ، ولاهو مقحم وغير ضرورى ، ان تبريره الوحيد انما يقع على مستوى اخر ـ واساسى ـ هو مستوى مسار العلاقات الاجتماعية والسياسية ، بالضبط ، فى حقبة الستينيات .

ألم أقل أن بهاء طاهر انما هو مؤرخ اجتماعى ، كما هو مؤرخ لمنازع الفكر ومحبات القلب ، معا ، وان فى هذا التضافر سر من اسرار جمال هذا العمل ؟

وليست حرب اليمن ـ فى هذه المسيرة ـ من قبيل الصدفة ، ايضا فلعلنى أرى فيها بنية داخلية مبثوثة فى العمل كله ، تتسادق وتتجاذب اصداؤها مع البنيتين الاساسيتين فى القصة : طلب الحب أو مرض الحب من ناحية وطلب العدل أو مرض العدل من ناحية أخرى .

أما التسادق بين هذه الانساق الثلاثة (وغيرها من الانساق الثانوية من نحو علاقة الاب والأم ، وعلاقة الراوية بأخته سميره) من ناحية ، وبين نسق الاسطورة الاوزيرية المستدعاة ، من ناحية اخرى ، فهو عنصر من عناصر التوتر غير المحلول ، فى تصورى ، عنصر قلق ، على ما فيه من بلاغة شاعرية ، على مافيه من مس لطبقة غائرة من تراث الوجدان .

واذا كانت صياغة "مرض العدل" من صنع الراوية ـ أو الكاتب الذى يتخذ من الراوية قناعا فنيا موضوعا على هواجسه هو نفسه ـ فان "مرض الحب" يستشف من صيغة العمل كله . وقد رأينا أن مرض الحب ينصهر بمرض العدل ويعكسه فى الوقت نفسه ، على اكثر من مستوى ، وفيها مستوى الأسطورة المستعارة كأنها مرآة غائرة مجلوبة من زمن آخر تخايلنا فى آن بأنها تدور فى غير زمن وكأن ايسيت ما تفتأ تظهر وترحل وتعود من غير نهاية .

ان القلق الاساسى فى استعارة الاسطورة هنا هو أن الاسطورة بطبيعتها غير تاريخية ، بينما جوهر هذا العمل هو التاريخ . ومهما كان مصدر الأسطورة تاريخيا فان بعدها الميتافيزيقى هو البعد الاساسى ، وخاصة اذا انقضت الظروف التاريخية المحددة التى ولدت فيها الاسطورة ، وخاصة اذا استدعيت الأسطورة فى العمل الفنى . واذا كانت اسطورة ايسيت تدور حول الخصب بعد المحل ، تاريخيا ، فإن قيمتها الباقية هى الخصب البعث ، والقحط الموت ، وهى قيم ميتافيزيقية لايمسها عمل هذا الكاتب ولايقاربها ، انه يستدعى هذه الاسطورة اساسا لكى يضع حلا للمأزق الاجتماعى والسياسى الذى يرصده بدقة بالغة . والمفارقة هنا هى بالضبط ان المأزق الاجتماعى السياسى لايمكن أن يحل الا حلا اجتماعيا سياسيا ، ويكاد اليأس من هذا الحل يؤكد نفسه خلال القصة كلها ، من أولها الى ماقبل آخرها بفقرة واحدة ، مفاجئة .

يكاد ، ولا ينطق

لأن هناك بالفعل اشارة الى الحل ، من داخل الموقف لا من خارجه ، كلما ظهر سيد .

ولذلك فان شخصية سيد هى الشخصية الوحيدة المصمتة الاحادية ، الكاملة الاتساق مع نفسها ، التى لاينالها شرخ التناقض الداخلى . هى بالفعل شخصية تقارب الرمز ، أو الرمز الذى يتجسد فى شخصيته لأنه يحمل قيمة المستقبل ، لأنه

جماع العناصر الايجابية ، لأنه الكادح النبيل ، لأنه يناضل بلا هوادة وبلا تردد لا لكى يصعد من قاع المجتمع الى وضع يؤمن فيه لنفسه الحياة الكريمة فقط ، بل لأن كل الفساد الذى يمور حوله ، وكل الشكوك والريب ، وكل زيف الشعارات . وكل الاكاذيب والتعلات ، كلها لاتمسه . سيد نقاؤه مطلق . وعلى انه مرسوم بكل البراعة وكل حذق الصنعة ، فهو يكاد يكون غير انسانى ، وغير تاريخى ليست عنده لحظة ضعف واحدة ولانقطة ضعف واحدة . نحن نطمئن ـ تماما ـ الى سيد مقابل الرواية البطل ، وصديقه حاتم اللذين يكونان على نحو ما ، وحدة واحدة ، أصولها الطبقية هى البوراجوزية الصغيرة المثقفة ، هناك ضحى التى هى فى وجه ما ، سليلة البرجوازية العليا الليبرالية ، الطبقة الغاربة المندثرة بكل رقتها وقسوتها معا .

ومقابل سيد هناك سلطان بك الذى لانكاد نراه أو نسمعه الا فى فقرة باعتباره السلطة التحتية الفاسدة التى تحبط كل مشروعات القيادة السياسية العليا ، ومن ثم تطعن مشروعيتها الثورية فى الصميم .

أما ضحى ، من وجه آخر فليس عندى شك فى أنها ستظل امرأة فريدة فى ادبنا الحديث ، ليس فقط لانها اكتسبت من اسطورة ايسيت وهجا خاصا بها ، بل ايضا واساسا للغنى الفاحش الذى اغدقه الكاتب عليها ، وهو غنى انسانى حقا واساسا ـ وليس بالضرورة غنى اسطوريا ـ وتناقضها الداخلى وحسها بهذا التناقض هو الذى ينفى عنها مجرد المعادلة الأسطورية ، بل يجعلها أغنى من معادلها الأسطورى ، بمعنى ما .

★ ★ ★

عند بهاء طار مقدرة على الدعابة ، أو التهكم الخفى المرهف اليدين ، أو السخرية الخفية لانكاد نجد لها مثيلا عند معظم كتابنا .

وهذه المقدرة هى التى تجعله انسانيا ، وموجعا فى الوقت نفسه . أنظر كيف يخفف ـ ويرهف ـ من جدية الأشواق وسذاجة المثالية عندما يذكر مظاهرات الطلبة امام ثكنات قصر النيل ، وانظر كيف يجعل ممارسة الجنس فى بيوت المقابر شيئا مؤسيا لأن شريان التهكم والسخرية يسرى فيه ، من غير أدنى قسوة ولا أدنى ادانة . بل انظر الى راويته كيف يسخر بنفسه وبالأسطورة كلها ، من غير مرارة .

هل فى سخريته الهادئة بنفسه مقدمة لخلاصه ، اذ عرف كيف يقبل نفسه ، ولعله عندئذ عرف كيف يغفر لنفسه مالم يستطع من قبل ان يغفره ابدا عندما خان صديقه ووشى به ، لاأمام الرصاص بل امام الاحذية السوداء ، وهل كانت مقدمة الحركة الأخيرة فى القصة ، اذ ينتشل الراوية نفسه من حمأة التردد والشك

المستمر وإدانة النفس "لست كبيرا بما فيه الكفاية ، لكى يضرب ، ويرد الضربات ، لكى يدفع بالفساد ـ على الاقل ـ خارج بيته ، ولكى ينضوى تماما فى النهاية مع سيد ، دون تردد ، لأن سيد هو رمز المستقبل ؟

لعل هذه الحركة الجدلية ، على المستوى الانسانى والاجتماعى معا ، (وليست غنائية الاسطورة ولاشاعريتها) هى القيمة الكبيرة من بين قيم اخرى فى هذه القصة الكبيرة .

ادوار الخراط

- ١ -

انتهت الضجة وكانت جزءا من الحياة فى مكتبنا .

فى كل صباح كانت تأتينا تلك الاصوات من «بورصة» الاوراق المالية ، وعندما تنتهى هناك تعلو فى الطريق فنعرف ان وقت انصرافنا نحن ايضا قد اقترب .

وكان لتلك الاصوات نغم . مع الصباح تبدأ بطيئة . همهمة جماعية خفيضة مثل تلاوة فى صلاة غامضة . بعد فترة تشتد وتتصاعد . تتحول النبرة الخافتة البطيئة الى صياح سريع ، الى اشتباك جماعى يعلو وسطه صوت منفرد ، حاد ورفيع ولكنه محايد . رتابته ايقاع يضبط الزعقة الجماعية التى تتكرر فيها أرقام وعبارات أخرى .. وعند الذروة تسكت تلك الاصوات فجاة ، تماما كما كان يحدث فى المدرسة عندما يدخل الفصل مدرس قاس بعد الفسحة القصيرة بين الحصتين . تأتى بعد ذلك من الطريق أبواق سيارات كثيرة وصيحات ، تستمر فى الشارع وسط مناقشات عالية تشبه الشجار .

عن نفسى لم اعرف ابدا ما الذى يدور هناك ، ولكنى مثل غيرى اعتدت العمل وسط الاصوات .

وفى ذلك الصباح الصيفى ، فى أول الستينات ، فى اليوم الذى تلا التأميم ، بدأت الحياة فى مكتبنا غريبة حين غلفها السكون . لاحظنا للمرة الاولى أننا يجب أن نخفض أصواتنا لاننا نحن ايضا كنا نصيح حين نتكلم .

وقفت فى النافذة أتطلع للشارع الصغير الخالى الذى يطل على نهر البورصة وجاءت ضحى ، فوقفت الى جانبى .

قالت : فيم تفكر ؟ .

قلت : فى الصمت .

فضحكت ضحى . لم أسمعها تضحك كثيرا منذ جاءت قبل شهور الى مكتبنا ..

قالت : أنا ايضا اعتدت تلك الاصوات كما يعتاد الساكن جنب البحر صوت الامواج .. ولما اختفت .

لم تكمل . شعرت أنها تريد أن تقول «جف البحر» ، ولكنها قالت وهى تتأمل الشارع الخالى : ربما كان سيد المنادى هو الذى يجب أن يفكر . لا أنا ولا أنت ..

لم تكن بحذاء الرصيف سوى سيارتين . جلس سيد بينهما محنى الرأس وهو يشبك يديه فى حجر جلبابه وقد فتح أزرار « الجاكيتة » الصفراء التى كان يلبسها دائما رغم الحر . قالت ضحى وهى مستغرقة فى تأمله : أنظر اليه . ها هو سيد على الرصيف كدمعة معلقة .

فقلت : أنت حزينة لما حدث ؟ .

اجفلت ضحى «أنا ؟» ، عادت نحو مكتبها وهى تمسح كفا بكف كأنها تنفض من يديها شيئا وقالت منذ أخذوا الارض لم يعد هناك ما يمكن أن نفقده . زوجى أيضا .. زوجى لم يبق لديه شىء .

كان زوجها يظهر فى الحديث دائما بعد كل جملتين . ربما لهذا السبب لم أعترف لنفسى أنى أحبها .

وعندما جلست ضحى الى مكتبها قالت : ولكن أنا مع الثورة .

ضحكت بصوت خافت وأنا أعود أيضا الى مكتبى قبالتها فقالت وهى تتطلع فى وجهى مباشرة وعيناها السوداوان تلمعان لاتضحك . انا لا أكذب .. فى أوروبا المتقدمة ذبحوا امثالنا أيام الثورة فى فرنسا وفى روسيا . هنا أنا أعمل مع حكومة الثورة . كيف أكون ضدها ؟ . هل انت ضدها ؟ .

ـ لا يهم ان اكون معها أو ضدها . انا مجرد موظف . لا أفهم كثيرا فى السياسة ولا أريد أن أفهم .

لم أقل لها أن السياسة كانت ذات يوم مأكلى ومشربى . كان ذلك منذ زمن بعيد على أية حال ...

هزت ضحى رأسها وهى تبتسم ابتسامة خفيفة عادت تفتح كتابا كانت تقرأه وهى تقول : لا توجه الى الكلام ، لايضيّع الدنيا الذين مع أو الذين ضد ولكن يضيّعها المتفرجون .

عدت أنا أيضا الى أوراقى ولم أفكر كثيرا فيما قالته . بين وقت وآخر أختلس النظر الى عينيها . تحيرنى عيناها . فيهما نظرة هادئة . تكاد تكون بليدة . حين ترتخى فوقهما الاهداب الطويلة السوداء يرتسم فيهما ذلك

الغياب والاستسلام ، ولكن حين تنظر مباشرة فى وجه من تحدثه تتقد العينان ويلمع فيهما بريق خاطف .. تظهر ضحى أخرى . ضحى أجمل بكثير ولكنى أكاد أخاف الاقتراب منها .

وفى ذلك اليوم كان الشارع هادئا عندما نزلت ووجدت سيد واقفا يدخن سيجارة وهو شارد ، وجهه غامق السمرة ، محدد الملامح ، عظمتا وجنتيه بارزتان وتبدو عيناه السوداوان كانهما غائرتان فى محجريهما .

قلت : شد حيلك ياسيد .

فتطلع الى ببطء وقال : الحمد لله .

ولكنى فى اليوم التالي سمعت سيد يقول لبائع السجائر وهو يتكىء على العارضة الزجاجية للمحل أنا ضعت يامصطفى .. وبعد أيام وبينما اشترى سجائرى من مصطفى توجه الى سيد بالكلام وقال أنه يقصدنى فى خدمة . وبعد ذلك تردد وراح ينظر الى مصطفى الذى هز له رأسه مشجعا وقال تكلم . لاتخف . قال سيد بصوت خافت انه يحمد الله ويعرف أن الارزاق عليه وحده ولكن ..

ثم رفع صوته فجاة وهو يقول : يا بك أنا مع الحكومة .

منعت نفسى من الابتسام وأنا اقول كلنا مع الحكومة ياسيد ..

ولاحظت أنى رفعت صوتى أنا أيضا فخجلت من نفسى . ولكن سيد ازداد أقترابا منى واكتسى وجهه الاسمر بالجد وهو يضع يده على صدره ويقول أنا أتكلم بجد والله يا بك . أنا مع الحكومة . أنا كما يقول الرئيس ضد الاقطاع وأعوان الاستعمار ولكنى أجرى على عيال وأمهم يا بك والحال كما ترى ..

قال مصطفى بعصبية هى خطبة ياولد ياسيد ؟ . أدخل فى الموضوع .

ثم التفت مصطفى نحوى وقال الحكاية باختصار يا أستاذ أن الشارع وقف حالة ولما طلب سيد من معلمه أن ينقله من هنا رفض . سألت مصطفى : من معلمه ؟ . فقال وهو يضحك لهم نقيب يا أستاذ . لايستطيع المنادى أن ينتقل من مكانه الا باذنه . والمعلم يقول لسيد هذا نصيبك فى الحلو والمر .

قاطعه سيد وقال وهو يقطب جبينه أى حلو ياعم مصطفى ؟ . الناس تظن أن السماسرة كانوا يغرفون ويرمون على . لن يصدقنى أحد لو قلت أنه هو القرش صاغ لاغير . السمسار منهم كسبان أو خسران هو القرش لاغير .

ثم ابتسم فجاة وهو يضرب كفا بكف . وقال فى وجودهم خسدنى الناس وحين ذهبوا أضاعونى . الله يخرب بيوتهم . !

قال مصطفى تريد أن يخربه أكثر مما حدث يا ولد ياسيد ؟ . دع السماسرة فى حالهم وأدخل فى الموضوع كما قلت لك . ولا تنس أن تقول للاستاذ أن معك شهادة المعاملة وشهادة الابتدائية .

رفع سيد رأسه وقال بنبرة تأكيد وسآخذ الاعدادية هذا العام ان شاء الله .

لما دخل سيد فى الموضوع وقال أنه يريد أن يعمل فى الوزارة لم أستطع ان أعده بشىء . قلت سأحاول . ثم سألت مصطفى وأنت ماذا ستفعل ؟ . كان السماسرة زبائنك أنت أيضا .

فقال بشىء من السخرية وهو يشوح بيده : البركة فى موظفى الوزارة . وضحك ..

حاتم هو أول من فكرت فيه عندما طلب منى سيد أن يعمل فى الوزارة .
كان صديق عمرى ، زميلى فى فؤاد الاول الثانوية ثم كلية الحقوق ، ولما تخرجنا عملنا معا فى نفس الوزارة . ولم نكن عندما تعارفنا فى نفس الفصل ولكننا التقينا أثناء المظاهرات المتكررة التى كنا نخرج فيها أيامها . وكان حاتم بقامته الطويلة يحمل الهتافين فوق كتفه العريض وكتف أى زميل آخر ، وكنت أنا موهوبا الى حد ما فى تأليف شعارات الهتافات . يدوى فى مكان من المدرسة صوت عصبى جهورى "اليوم حرام فيه العلم" فيتردد الصدى فى كل مكان ونخرج فصلا بعد فصل ، نتجمع فى فناء المدرسة ويشرح الخطباء لماذا اليوم حرام فيه العلم . غالبا ما يكون ذلك من أجل مصر والجلاء بالدماء ونيل واحد وشعب واحد . ولكننا نعتقد ايضا أن كل شئون العالم تخصنا . توقع العراق معاهدة مع انجلترا لاتعجب الشعب هناك ولا تعجبنا فنخرج : صدقى - بيفين حرقت صدقى وجبر - بيفين قبر بيفين . يقتل اليهود فلسطينيين فى حيفا فنخرج شهداءك ياحيفا فى الجنة وتارك يا فلسطين فى رقابنا .

وتخرج المظاهرة للشارع الرئيسى ، ترتفع القبضات والهتافات من آجل مصر وفلسطين وتونس وسوريا والشرق كله وحين نرى من بعيد طلبة مدرسة خليل أغا مقبلين نحونا بهتافاتهم الخاصة ننتظر لحظة لنستمع الى تلك الهتافات . نقارنها مع هتافاتنا لنختار الاقوى والاسهل . ثم تزداد هتافاتهم وهتافاتنا ارتفاعا كلما اقتربنا من بعضنا البعض .. نتبارى فى الحماس وفى الوطنية . تصطخب موجة نحو موجه وحين تلتقيان تدويان معا ونتعانق على غير معرفة ويربت كل منا على كتف زميله ونقذف بالاحجار الدكاكين الانجليزية أو الفرنسية التى تصادفنا حسب نوع الاضراب ، ونصادر أول ترام نقابله ، نحتكره لنا ونوجهه الى ميدان الاسماعيلية أو الى جامعة فؤاد حسب الظروف .

وفى احدى المرات كنا نتظاهر فى ميدان الاسماعيلية ، الذى صار التحرير فيما بعد ... وكنا أمام معسكر الانجليز الذى صار الهيلتون

والجامعة العربية فيما بعد . كنا نهتف بحماس ضد الانجليز وضد بيفين ومن أجل الجلاء أمام ذلك المعسكر الكئيب بلونه الاحمر الباهت ونوافذه المستطيلة التى ظل زجاجها مطليا باللون الازرق من أيام الحرب . أمامنا سور مرتفع ، مفروش فى أعلاه بزجاج بنى وأخضر مكسور مدبب ومن فوق الزجاج دوائر من أسلاك شائكة ملفوفة . وبدأ المعسكر مهجورا بصمته ونوافذه المغلقة ، ولكنى لسبب ما كنت أول من رأى نافذة زرقاء تفتح وجنديا يطل بزيه الكاكى ووجهه الاحمر وفى يده بندقية وكان حاتم الى جوارى ورأسه ترتفع فوق بقية الرءوس فدفعته بجسمى كله وسقطنا على الارض معا وكشطت الرصاصة بالكاد جزءا من حاجبه لكنها استقرت على الارض .

وفى ذلك اليوم سقط فى ميدان الاسماعيلية قتلى .

ولم ندخل أنا وحاتم أى حزب . ولكنه بعد الثورة ، وكنا قد توظفنا ، دخل هيئة التحرير ولم أعد أنا أهتم بأية سياسة غير أن صداقتنا ظلت كما هى . وفى العمل برزت لحاتم موهبه نادرة فى حفظ القوانين واللوائح الادارية بأرقامها ونصوصها فاستطاع أن يصل وأصبح وكيلا لادارة المستخدمين وسبقنى بدرجتين .

ذهبت الى مكتب حاتم فى اليوم التالى لحديثى مع سيد . وكان مكتبه فى الدور الخامس من ديوان الوزارة ويتميز عن مكتبنا كوكيل ادارة بوجود سجادة نظيفة على الارض وعدة مقاعد جلدية وصور ملونة للرئيس فى برواز على الحائط خلف رأسه . ومن نافذة ذلك المكتب كان يبدو مبنى الاذاعة العتيق بحجارته الضخمة البنية والمربعة ونوافذه الواسعة المتجاورة وكنت كلما نظرت الى هذا المبنى من نافذة مكتب حاتم رأيته غريبا وسط البيوت الحديثة المحيطة به وكأنه أثر غامض من حضارة مجهولة .

حكيت لحاتم قصة سيد وقلت له ، أنه يريد أن يعمل فى الوزارة فسألنى هل يهمك أمره ؟ . قلت لاأعرف عنه غير أنه فى أزمة . ان كنت تستطيع مساعدته لماذا لاتفعل ؟ .فقال حاتم وهو يضحك واجبنا حل مشاكل الشعب . سأرى ربما ان نعينه ساعيا باليومية .

سألت حاتم وهل هناك أخبار عن المنحة الدراسية ؟ . فتنهد وهو يرجع فى كرسيه وقال أنت حكايتك حكاية . كان المفروض أن تسافر الى روما فى

هذه المنحة من زمن . بل المفروض أن تكون قد رجعت من زمن . أوراقك كلها جاهزة ولكن فى كل مرة تصعد الى فوق فتنام . لماذا لاتتحرك ؟ . لماذا لا تجرى اتصالات ؟ .

قلت وأنا ابتسم : ها أنا أتصل بك . ألست عضوا بارزا فى الاتحاد القومى ؟ .

فضحك وقال : ولماذا لاتصبح أنت عضوا ؟ .

– أنا عضو وتخصم منى قروش الاشتراك أول كل شهر .

– كذلك الساعى الذى يقف أمام مكتبى ..لكن أنت رجل مثقف وتعرف لغات .. لماذا لاتنشط ؟ .

ولكنى لما سألته كيف أنشط أخذ يفكر . قلت وانا أقوم لأنصرف : بالمناسبة ياحاتم قرأت مقالا يقول أنهم سيغيرون الاتحاد القومى ليصبح اسمه الاتحاد الاشتراكى . فقال حاتم وهو يضحك من جديد ويقف لمصافحتى اتحاد قومى .. اتحاد اشتراكى اتحاد عفاريت زرق نحن معهم والزمن طويل .

ثم توقف فجاة وكأنه تذكر شيئا وقال اسمع . سأقول لك كيف تنشط . أول شىء تفعله هو أن تترك الادارة الميتة التى تعمل فيها . انتقل لديوان الوزارة اختلط بالناس ورشح نفسك فى انتخابات الموظفين القادمة . تغير أرجوك .

– ولكن هذه المنحة مخصصة أصلا لادراتنا فكيف أترك الادارة الان ؟ . تعرف انى أحتاج الى هذه المنحة .

سكت حاتم قليلا وابتسم ابتسامة ماكرة وهو يقول :

– اذن حاول أن توسط مدام ضحى .

أنزلت يدى الممدودة لمصافحته وقطبت فى وجهه لكنه رفع يديه الاثنتين معا وقال بصوت خفيض كأنه ينهى الى سرا – هذه سيدة مسنودة جدا . عينت بمكافاة كبيرة خارج «الكادر» وبقرار من وكيل الوزارة نفسه . هل تعرف من هو ظهرها ؟ .

قلت بغضب هل تعرف عنى ياحاتم أنى من أهل الوساطة ؟ . ووساطة النساء بالذات ؟ .

فقال ياسيدى هذه كانت نكتة . دائما أعصابك تالفة ؟ . ثم مد يده فصافحنى وهو يقول على العموم سأحاول من أجل سيد . أما أنت فربما يطول انتظارك .

وقالت ضحى لما رجعت الى المكتب أنى لست عاديا . وسألتنى عن السبب أخبرتها عن موضوع المنحة الدراسية فضحكت طويلا وقالت الى هذا الحد يهمك السفر الى اوروبا ؟ . ماالذى تشتاق اليه هناك حقا ؟ . العلم الذى ستحصل عليه من المنحة أم البنات الاوروبيات ؟ .

قلت فى الواقع يا مدام مادمت مهتمة الى هذا الحد فأنا أشتاق الى بدل السفر . لى أخت قد تتزوج قريبا وأحتاج الى أى نقود . هل ارتحت الان ؟ .

ورميت على المكتب أوراقا كانت فى يدى وأنا أزفر .

كفت ضحى عن الضحك . قالت ووجهها يحتقن أنا أسفة . كنت أحاول أن أخفف عنك .

لم أرد فنظرت نحو النافذة وقالت فى هدوء لاتتباه بهمومك . لا أحب من يتباهى بهمومه . أنا أيضا أحتاج الى أى نقود . لو تعرف كم أحتاج اليها .

تطلعت لها مندهشا لكنها لم تحول وجهها عن النافذة . كانت شاردة وبعيدة .

بعد فترة عادت تقرأ الرواية التى فى يدها . كنت أعرف أنها رواية «الامل» . أحنت رأسها فاختفى وجهها الجميل وسط هالة شعرها الغزير الاسود .

قلت لها مصالحا على فكرة «مالرو» كان اشتراكيا عندما ألف هذه الرواية . تجدين عندك كلاما كثيرا عن حقارة المال .

حاولت أن أضحك لكنها قالت بجفاء دون أن ترفع وجهها عن الكتاب .

ـ أعرف .

ومع ذلك ففى هذا اليوم تقاربنا أكثر أنا وضحى . قبلها لم نكن نتكلم الا عن العمل والاشياء اليومية .

وفى المكتب الذى نشتغل فيه لم يكن عمل كثير وكان الوقت يسمح بقراءة الروايات . وكان لهذا المكتب «الميت» كما يسميه حاتم وبقية الموظفين تاريخ : ففى أول الثورة جاءنا وزير قرر أن ينظم الوزارة من جديد . جمع الوزير الموظفين الذين يعرفون لغات اجنبية وأعطانا كتبا عن التنظيم الادارى ثم شرح لنا فلسفته وكانت تتلخص فى تحديد الاختصاصات والواجبات لكل وظيفة ولكل قسم . وبعد ذلك طلب منا أن نصنع جداول وخرائط تحدد صفات الوظائف وشروط الترقية حسب الكفاءة

وما الى ذلك . ولما تقدمنا فى العمل استأجر لنا هذا المكتب فى احدى العمارات بجانب ديوان الوزارة واسمانا «مراقبة» التنظيم والادارة .. وقرر لنا الوزير أيضا منحا للتدريب فى أوروبا . ولكن عندما انتهينا من العمل الذى أراده كان هو قد ترك الوزارة . ولم يهتم الوزير الذى بعده بالحكاية كلها غير أنه تركنا فى أماكننا وظلت الخرائط والتنظيم فى درج مكتبى . مع ذلك سعى معظم الموظفين حتى رجعوا الى اداراتهم الاصلية وبقيت فى الشقة الصغيرة مع اثنين أو ثلاثة . أحيانا كان يأتى الينا بعض الموظفين منفيين من اداراتهم بسبب غضب رؤسائهم عليهم ثم يعودون بعد زوال الغضب ، وأحيانا يكلفنا مكتب الوزير أو غيره من المهمين فى الوزارة بترجمة بعض التقارير لان مكتبنا شاع عنه التخصص فى معرفة اللغات الاجنبية ولكن غير ذلك لاشىء .

ولما عينت ضحى فى الوزارة جاءوا بها الى مكتبنا لانها لم تكن تعرف شيئا غير اللغات الاجنبية .

أما أنا فظللت أنتظر المنحة الدراسية التى رشحت لها رسميا ولما جاءت ضحى أحببتها .

وبعد اليوم الذى أغضبتنى فيه وأغضبتها صارت تحدثنى عن حياتها وصرت أحدثها عن حياتى .

نسير معا كل يوم الى ميدان التحرير . أنا لكى أركب الاوتوبيس الى العباسية وهى لتواصل سيرها وتعبر الكوبرى الى بيتها فى الجزيرة .

وفى ذلك الصيف كنا نسير معا فى شارع قصر النيل . كانت تلك أول مرة تظهر فيها طراز الفساتين التى تعلو الركبة ، والعيون تحاصر البنات اللاتى يسرن على الرصيف وقد تعرت سيقانهن الطويلة وافخاذهن المشدودة ، ولكن البنات كن يمشين ببطء ويتوقفن أمام واجهات المحلات . يتظاهرن بعدم المبالاة بالعيون المحدقة والتعليقات الفاضحة التى تصدر أحيانا من المارة وأحيانا من السيارات المتتابعة فى الطرق . وعندما تمر احداهن بجانبى وأنا مع ضحى كنت أنظر أمامى مباشرة ولكن ضحى تلفت انتباهى وتتطلع الى وجهى فيزداد ارتباكى بينما تضحك هى .

قالت ضحى : ماذا لو جئت الى المكتب غدا بفستان كهذا ؟ .

نظرت لها مندهشا فقالت وهى تضحك : ألا تعجبك البنات الجريئات ؟ .

قلت **مندهشا** نعم ولكن ..

فقالت : ولكن ماذا ؟ .
ـ هذا استفزاز .
ـ لماذا ؟ . هل رأيت صور الفراعنة وزوجاتهم ؟ . كان المصريون القدماء فى منتهى التقوى بالمناسبة .
ـ ولكن هذه هى القاهرة الان لا طيبة من آلاف الاعوام .
فقالت وهى تهز رأسها حسن أنك ذكرتنى . تعال نشرب قهوة .
وكنا فى ميدان سليمان فدخلنا الى محل صغير بجانب كشك الجرائد . تقدم صاحب المحل الاجنبى من ضحى وسألها بالفرنسية قائلا كالمعتاد يامدام ؟ . فقالت هى أيضا بالفرنسية نعم ، اثنان . ولما قدم لنا القهوة «الاكسبرسو» ظل يقف خلف الحاجز الخشبى صامتا وهو يتطلع اليها فهزت رأسها بعد رشفة وقالت تمام ، وابتسم الرجل وهو يبتعد عنا ليجلس على مقعد طويل أمام آلة حاسبة . وقفنا نشرب القهوة صامتين أمام العارضة الخشبية الصغيرة ومن خلفنا الميدان . لم يكن فى المحل سوانا . وبعد فترة سألتنى ضحى لماذا لم تتزوج حتى الان ؟ . هل أختك هى السبب ؟ .
ـ أختان لا واحدة . لم يبق لهما فى الدنيا غيرى .
ـ وكم عمرك ؟ .
ـ ستة وثلاثون .
ـ مثل زوجى تقريبا .
ثم رفعت أصبعها وهى تبتسم ـ أما أنا فأصغر منكما بكثير .
وكانت تبدو بالفعل دون الثلاثين .
وبعد أن شربنا القهوة دفعت أنا الحساب ولكن قبل ان نخرج فتحت ضحى حقيبتها وأعطت للرجل عملة ورقية تزيد كثيرا على الحساب الذى دفعته فانحنى لها بابتسامته الصامتة . وقالت ضحى بعد أن خرجنا هذا واحد من الصامدين . نظرت لها بدهشة ولكنها لم تنتبه .
كنا نقترب من ميدان التحرير حيث سنفترق فقالت ضحى يجب مع ذلك أن تتزوج .
ـ نعم .
فضحكت ضحى وقالت لا توافقنى دائما على ما أقول . قل مثلا أن

الزواج لعنه وأنك لاتريد أن تتزوج أبدا الى اخر تلك الاشياء التى يقولها الرجال الذين لم يتزوجوا ثم ضحكت ضحكة أخرى وقالت .. والذين تزوجوا أيضا .

ـ ليكن . أنا أريد أزوج أختى فقط ، هذا هو كل ما يهمنى الان .

ـ وبعد أن تزوج أختيك ؟ ..

ـ لم اسأل نفسى هذا السؤال .

وقفنا عند النافورة التى تتوسط ساعة الزهور فى ميدان التحرير . كان الهواء هناك مشبعا برذاذ خفيف كالبخار .

ولم تبد ضحى متعجلة ، وكنت أنا مستعدا أن أقف الى الابد .

قالت ضحى : الم تفكر فى مستقبلك؟ . ألم تضع مشروعا لتحقق ماتريد ؟ .

فقلت : سأصارحك بشىء ياضحى .. أنا لاأعرف حقيقة ماذا أريد . سأصارحك بشىء آخر . أنا لا أرغب فى شىء أبدا بحماس حقيقى . لا أعرف متى بدا ذلك . فى الجامعة كنت متحمسا وكنت متفوقا وتوقع أساتذتى أن أواصل الدراسات العليا بعد التخرج لاعمل فى الجامعة . وكنت أنا أيضا أنوى ذلك ، بل وضعت مشروعا طموحا لرسالة الماجستير وحددت عنوانها «مفهوم الحرية فى القانون» ولكن فجاة لم يعد كل ذلك يستهوينى ، أن أدرس وأشتغل فى الجامعة وأحنط نفسى وسط الكتب . وعندما اشتغلت فى هذه الوزارة قنعت بالادارة التى وضعونى فيها ولم أحاول أن أغيرها . حاتم مثلا سعى لان ينتدب الى وزارة أخرى وذهب الى الواحات فحصل على درجة اضافية . ولما عاد من الواحات كان قد ادخر مالا فتزوج البنت التى كان يحبها منذ أيام الجامعة . أنهى الدراسات العليا فرقوه درجة أخرى . أنا لم أطمع أبدا الى ترقية أو وظيفة . يتهمنى حاتم بعدم الطموح وأظنه على حق . لا أفهم حتى لماذا يطمح الناس .

ـ فلماذا اذن كنت حزينا جدا على المنحة ؟ .

ـ ألم اقل لك ؟ . لكى أزوج أختى . لغير ذلك لا أحتاج مالا . مرتبى يكفينى . البيت الذى نسكن فيه ايجاره رخيص ، والكتب رخيصة . لا أريد شيئا آخر .

فجاة هتفت ضحى : كذب ؟ .

كان صوتها مرتفعا بعض الشىء فالتفت لنا الناس الواقفون على محطة

الاتوبيس القريبة وارتبكت أنا قليلا لكن ضحى بدأت تمشى بخطوات بطيئة فى اتجاه الكوبرى وأنا الى جوارها وعند ناصية الحديقة الصغيرة اتجهت يمينا ناحية الهيلتون بدلا من طريقها المعتاد وكانت تدمدم كذب كذب محتدة وغاضبة كأنى أهنتها .

قلت : لو أنى أكذب فلم تظنين أنى هكذا ؟ .

قالت وهى تهز رأسها ـ أظن انك مثل الثعلب المشهور فى القصة ، تشتهى العنب وتتعزى بأنه حصرم أظن أنك مثل فاوست ، تقرأ الكتب وتتمنى أن تمتلك الدنيا .

ـ فى داخلى أشياء .

ـ اعترف .

ـ أعترف ، لكنها ليست هى المال ولا الترقيات ولا المجد . أحيانا أمتلىء بالغضب على نفسى وعلى حياتى . أحيانا تجتاحنى أشواق لاأعرف ماهى بالضبط .

نعم فى داخلى أشياء ولكنى لا أستطيع أن اسميها .

قالت وقد تغير صوتها ما أجمل التواضع لو أنه صحيح . ولكنى لم أعرف انسانا يرغب من قلبه ، ألا يمتلك .

لم أعرف سبب انفعالها لكنها كانت الان تتكلم بصوت خفيض لا يعكس أى شعور . قالت سأحكى لك عن أقرب انسان أعرفه ، عن زوجى . عندما تزوجنا كان يملك كل شىء . الشباب والثروة والمجد . كان عضوا بارزا فى الحزب وفى الحكومة . مدير مكتب الوزير أو شيئا من هذا النوع . كانت كل خيوط الوزارة التى يعمل فيها بيده . وعندما جاءت الثورة وأخذوا أرضه وأرضى لم يهتم بذلك . قال مابقى يكفينا . ولكنهم عندما أخرجوه من الوزارة بعدها الى المعاش مع من أخرجوهم وقتها لم يصدق ما حدث . أظن أنه حتى الان لا يصدق . من يومها بدأ يقامر . ما زال حتى الان يقامر . أظن أنه يريد كل مال الدنيا لكى يعوض ما خسره عندما طردوه من الوزارة ولكنه لا يربح ابدا . وبالمناسبة هل سمعت عن أحد ربح حقيقة من القمار ؟ . قلت له مرة أنه يحاول أن يسترد بالحظ ما ضيعه التاريخ لكنه لم يفهم . ضاعت كل الارض وضاع كل ما نملك لكنه لم يفهم .

ـ لهذا تشتغلين ؟ . لهذا قلت أنك تحتاجين الى المال ؟ .

وقفت ضحى وحدقت فى بعينين واسعتين مندهشتين كأنما فاجأها

استنتاجى واكتشفت أنها تورطت فى الحديث معى .

قالت وهى تتطلع الى بيأس : أستطيع أن أثق بك أليس كذلك ؟ . هذا الكلام بيننا ، أليس كذلك ؟ .

بدت مذعورة فهززت رأسى عدة مرات وأنا أكرر نعم تستطيعين أن تثقى بى . أرجوك أن تثقى بى .

ولكنها كانت تلتفت برأسها بعيدا عنى وهى تنظر فى شرود الى مدخل «الهيلتون»» وقالت فجاة بصوت غاضب لماذا وضعوا هذا المبنى هنا ؟ . لماذا بنوا هذه «التورتة» الزرقاء بجوار المتحف ؟ . هذا تدنيس للمكان .

فاجأتنى ملاحظتها فنظرت الى المدخل وعليه تلك النقوش الهيروغليفية من الثعابين والطيور ، والخطوط المتعرجة وكأنها كانت تتابع نظرى فقالت وهذه النقوش تدنيس للكتابة القديمة . الكتابة كانت .. كانت شيئا مقدسا لازينة لا .. لا .

ثم التفتت الى وقالت بلهجة مختلفة تماما . أسفة جدا . ولكنى لا أستطيع أن أثق بالرجال .

ثم تركتنى واقفا ومشت مبتعدة بخطوات مسرعة .

- ٣ -

جميلة ضحى . طويلة القامة ، تبرز استدارات الانوثة فى صدرها وأردافها ولكن دون أدنى تزيد .. وجهها متناسق الملامح ، تحيط ببشرته الخمرية الصافية هالة من شعر أسود ناعم وغزير ، ينسدل حول عنقها العالى الطويل الاملس ويذهب بعيدا وراء ظهرها . ولكن عينيها كانتا هما حيرتى . يعلوهما حاجبان طويلان ، كثيفان الى حد ما بامتداد العينين الواسعتين ، ولم أرها يوما تهتم بتزجيجهما او تسويتهما ، وكانا مع أهدابها الطويلة يعطيان ايحاء بأن هاتين العينين السوداوين الجميلتين مكحولتان باستمرار . ومع ذلك فنادرا ما كانت ضحى تستعمل المساحيق والاصباغ فوق بشرتها الشفافة .

رأيت بالطبع من هن أجمل من ضحى . ولكن عندما تتكلم لم أكن أعرف من يشبهها . أحملق فيها . أخفى دهشتى وأخفى حبى . ينفذ صوتها المنغم الى كمخدر ناعم يتسلل عبر جسمى . أسأل نفسى هل حدست حبى . ؟ هل يبين على ؟ ربما . لكنها لم تقل شيئا أبدا .

تأتى الى المكتب دائما وهى تحمل كتبا . روايات فرنسية ، أشعارا صينية مترجمة ، مسرحيات يونانية قديمة ، كتبا عن النحت ، عن النبات ، عن التاريخ . تقرأ بنهم وسرعة .. ترفع رأسها بين وقت وآخر لتقرأ لى بيتا من شعر أو جملة من حوار ، وعندما أقول لها أن هذا الكتاب أو ذاك ترجم الى العربية تتسع عيناها وتقول بدهشة فعلوا ذلك حقا ؟ وكان ذلك يغيظنى وترى هى ذلك فتضحك .

فى بعض الاحيان تأتى الى المكتب ومعها كتبها . لكنها تضعها أمامها ولاتقرأ . فى عينيها تلك النظرة المستسلمة التى تنذر رغم ذلك بشر مكتوم . تظل صامتة . يبدو عليها الحزن وشعيرات الدم الاحمر تزحم بياض عينيها . تبدو كما لو كانت قد بكت طويلا . تفتح صفحة من كتاب وتظل تحدق فيها شاردة . أراقبها خفية وأحاذر أن أكلمها فى تلك الاحوال .

وظننت مرة أننى فهمت سبب ذلك كله . تغيبت ضحى يومين وعندما

سألنا عنها عرفنا انها فى المستشفى . ذهبت لزيارتها مع اثنين أو ثلاثة من الزملاء فى سيارة حاتم . خرجنا من العمل الى المستشفى معا ولم نجد أحدا من أسرتها هناك . وقالت لنا احدى الممرضات يمكنكم الدخول .. زال الخطر وتستطيعون رؤيتها ولكن لاتبقوا طويلا .. وحين دخلنا كانت ترقد على السرير مزرقة الوجه وقد علقت فوقها زجاجة مملوءة بسائل ويمتد منها أنبوب شفاف الى ابرة مغروسة فى ظهر يدها . كانت تفتح عينيها ورأتنا فرفعت يدها الاخرى وحاولت أن تبتسم لنا . وبينما اقترب حاتم والاخرون منها ليهمسوا بالعبارات المألوفة المشجعة أمسكت أنا بالورقة المعلقة فى اطار على حاجز سريرها المعدنى الابيض وكان مكتوبا عليها بالانجليزية «تسمم كحولى» قلبت الورقة قبل أن يراها أحد .

ولكن عندما خرجنا قال لى حاتم : رأيتك تقرأ حالتها فماذا بها ؟ .

قلت : أظن أنه مرض من تلك الامراض النسائية . نزيف أو شيء من هذا النوع .

قال باهتمام : ربما كان اجهاضا ؟ .

فقلت : ربما .

ربت حاتم على ظهرى وقال وهو يبتسم لاتحزن على أى حال . ستعود زميلتك قريبا كالحصان وسيزدهر التنظيم والادارة .

ولما رجعت ضحى الى العمل قلت لها أن ترد على من يسألها عن مرضها بعبارات غامضة ليفهموا أنه شيء لا تريد الخوض فيه . لم أشرح شيئا ولم تقل هى الكثير قالت أنا ممتنة لك .

وكثرت لدى ضحى بعد عودتها من أجازتها المرضية لحظات الشرود وبدت أعصابها مشدودة دائما . وفى تلك الايام على ما أذكر حدث ذلك اللقاء الاول بينها وبين سيد .

كان حاتم قد قال لى بعد أن أخذت سيد اليه بأيام ومعه أوراقه وشهاداته اتضح أن صاحبك سيد صعيدى مثلى ولديه أيضا حماس ثورى . وضحك حاتم ضحكته العالية كما يفعل دائما عندما يكلمنى عن السياسة . ولكن اجراءات التعيين استغرق وقتا طويلا رغم ذلك .

وبدأ سيد سعيدا يوم جاء الى مكتبى لأول مرة وهو يلبس زى سعاه الوزارة الرمادى . جاء ليشكرنى وقال لى لو طلبت رقبتى فى يوم ياأستاذ فهى لك .

وفى تلك اللحظة دخلت ضحى وقالت مبروك ياسيد .

بدت عليه الدهشة لانها نادته باسمه ولكنها شرحت له وهى تشير الى النافذة كنت أراك دائما من هنا وأسمع النداء عليك .

فضحك وهو يقول : آه . أيام القطاع الخاص .

قالت : لم تكن سعيدا بأيام القطاع الخاص ؟ قال : ومن يرضى بالذل ياهانم ؟ كان اسمى على لسانهم دائما ياولد ياسيد . خذ ياولد ياسيد ، تعال ياولد ياسيد ، هنا أنا سيد القناوى لاغير . الاستاذ هنا يقول لى ياسيد وحاتم بك يقول لى ياسيد .

هزت ضحى رأسها وقالت أنت فصيح أيضا .

فقال : قلت لك سيد القناوى ياهانم . وضحك لكن ضحى قالت دون أن تنظر اليه وهى تحك جبهتها كأنها تكلم نفسها : ومع ذلك فبعض هؤلاء الناس طيبون ، أليس كذلك ؟ .

قال : طيبون مع أنفسهم وليس مع الفقير ياهانم . أنت لاتعرفينهم .

قلت : أسكت ياسيد .

فقال لى : أريد أن تفهم الهانم فهى لاتعرف هؤلاء الناس .

فقالت ضحى وعيناها تغيمان : كانوا يفتحون بيوتا مع ذلك . وكنت تعيش من خيرهم اليس كذلك ؟ .

حاولت أن أتدخل ولكن لم تكن هناك فائدة . كان سيد الان مندفعا وقد انعقد حاجباه الكثيفان وغارت عيناه بعيدا فى محجريهما . قال بغضب :

ـ أنت أيضا تقولين ذلك ؟ أنت لاتعرفين كرمهم ولكن أنا أعرفهم . كنت أراهم ياهانم يشترون زجاجات الويسكى بالشىء الفلانى وبينما يضعونها فى سياراتهم يعذبون بائع الفجل او الليمون فى المساومة على ملاليم . سأحكى لك ..

أخذت سيد من يده بالقوة تقريبا وخرجت به من المكتب الى الصالة الصغيرة خارجه . كان وجهه مكفهرا وعيناه محتقنتين فقلت له بصوت حاولت أن أجعله هادئا ياسيد ربما لم يكن هناك داع لهذا الكلام مع المدام . هى أيضا من هؤلاء الناس .

فقال بانفعال وهو يضع سبابته على جانب رأسه من تظننى ياأستاذ ؟ . بالطبع فهمت ذلك من أول لحظة . فهمت وحاولت أن أعلمها .

فقلت منفعلا أنا أيضا : ومن طلب منك أن تعلمها ؟ أتركها فى حالها .

قال أمرك ، ولكنه ترك المكتب غاضبا .

وأظن أنه منذ ذلك اللقاء الاول بدأ النفور بين ضحى وسيد .

ولما رجعت الى المكتب قالت ضحى أنا أسفة فقدت أعصابى دون مبرر .

ثم ضحكت بلا روح وقالت ولكن هذا زائد على حده قليلا . سيد الحناوى او الحفناوى يتكلم عن القطاع الخاص وعن «هؤلاء الناس» ويريد أن يعطينى دروسا !

وضربت كفا بكف .

لم تكن قد عرفت سيد على حقيقته بعد ولا أنا كنت قد عرفته . ولكن فى خلال شهور كانت الوزارة كلها تقريبا تعرف سيد القناوى . أخذه حاتم معه فى التنظيم السياسى ثم رشح هو نفسه فى اللجنة النقابية لعمال الوزارة ونجح فى الانتخابات . فاز على كثير من العمال الاقدم والذين احترفوا الترشيح فى الانتخابات . كان ببساطته وحماسه الذى لايبدو فيه أى تكلف أو ادعاء يجعل كل من يعمل معه أو يعرفه يحبه ويثق به . ولما حصل على الاعدادية سعى حاتم فى تعيينه فى وظيفة ملاحظ عمال . أصبح . يجلس على مكتب وخلع زى السعاة ولبس بذلة متواضعة .. رأيت غيره ممن حدثت لهم هذه النقلة وكانوا فى العادة يبالغون فى الوقار واتخاذ سمة «الموظفين» وتوقعت أن يحدث لسيد شىء من ذلك .

ولكنى رأيته بعد ذلك بقليل فى مكتب حاتم ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل فى وظيفته الجديدة . وعندما دخلت كان حاتم يتكلم بعصبية وما أن رآنى حتى رفع يديه مستنجدا وقال حسن أنك جئت . قل لصاحبك أن يعقل .

ولكن سيد الذى يقف أمام مكتب حاتم نظر الى مبتسما وقال الاستاذ معى . الا توافقنى يااستاذ على أن العمال يعيشون أيام الجمعة مثلهم مثل بقية خلق الله ؟

فقال حاتم وهو يضحك الاستاذ ياسيد يقرا اشعارا وروايات هل تتوقع أن يعرف مشكلة أيام الجمعة ؟

فقلت وأنا أجلس لا تمنع الاشعار ياأستاذ حاتم أنا أعرف أن عمال اليومية فى الوزارة يقبضون مرتبهم مخصوما منه أيام الجمعة .

قال حاتم اذن فأنت مثله لاتعرف الحكاية كلها . هذه ليست مشكلة

خاصة بوزارتنا . هذه مشكلة فى كل وزارات الدولة ولا يمكن أن نحلها وحدنا .

فقال سيد لحاتم : ولكن سعادتك تعرف بنودا فى ميزانية الوزارة يمكن أن تساعد .

ورد حاتم ساخطا : من ملأ رأسك بهذا الكلام ياسيد ؟ من أدراك بميزانية الوزارة ؟

ثم التفت حاتم الى وقال أقسم لك أنهم يفكرون فى رفته بسبب أفعاله .. هو لم يثبت فى الوظيفة بعد ويمكن فصله بورقة من مدير المستخدمين .

قلت : ألا تستطيع أن تترك هذه المسالة لغيرك ياسيد ؟ على الاقل حتى يثبتوك فى الوظيفة ؟

فقال سيد وماذا أقول للناس الذين انتخبونى فى اللجنة ياأستاذ ؟ أقول انتظروا حتى يثبتونى وبعدها سأصبح رجلا ؟ فى بلدنا مثل يقول ..

فقاطعه حاتم وهو يرفع يديه معا ، فى نفاذ صبر وقال وهو يضحك بيتك على بيت امثالك ياسيد قناوى على بيت انتخابك ! انتخبوك لمجلس النواب يعنى ياأخى ؟ هذه لجنة ؟ لجنة لا يسمع بها أحد ولو متم كلكم غدا .

فقال سيد وهو يضحك أيضا ولكن يابك أنا فى هذه اللجنة لا فى مجلس النواب فماذا أفعل ؟ أدخلنى المجلس وأنا أحل كل المشاكل .

ولم يصل ذلك الحديث الى شىء ولكن عندما تركنا مكتب حاتم أخرج سيد من جيبه ورقة مطوية وقال ياأستاذ هذه مذكرة كتبناها لنقدمها باسم اللجنة عن أيام الجمع كلام على قدنا . أرجوك أن تكتبه أنت بلغة الحكومة .

رحت أقرأ تلك المذكرة ونحن نسير معا فى ممرات الوزارة نحو باب الخروج ولما انتهيت منها قلت ولكنها مكتوبة بوضوح تام ياسيد أنت الذى كتبتها .

فقال نعم . ولكن هل حقا أعجبتك ؟ هل نفع معى التعليم بالفعل ؟

قلت وأنا أهز رأسى - نفع جدا . نفع أكثر من اللازم قليلا .

فقال وقد تلاشت ابتسامته تهزأ بى ياأستاذ ؟

قلت أبدا . أقسم لك .

وقال وهو لايزال عابسا فعلت ما استطعت .. كنت أترك الاولاد وأمهم نياما فى البيت وأخرج لاذاكر فى نور الشارع .

- ولكنك بهذا وصلت الى ماكنت تريد . ما كنت أقصده ياسيد هو أنك

تأخذ المسألة بجد أكثر من اللازم . غيرك يفكرون فى أنفسهم وفى أولادهم ولكن أنت لم تمض عليك فى الوزارة شهور وها أنت تجر على نفسك المتاعب .

كنا الان نقترب من الممر الذى يجب أن تخفت فيه أصواتنا لان فى نهايته السجادة الطويلة الحمراء التى تفضى الى مكتب الوزير . وكان يجب أن أنزل من السلم الذى يسبق هذا الممر فمددت يدى لأصافح سيد ، لكنه قال سأنزل معك .

ظل سيد صامتا وعابسا ونحن ننزل السلم ، وفى الصالة الواسعة فى الدور الاول من الوزارة المزدحمة بالموظفين الداخلين والخارجين توقف فجأه وسألنى هل تنصحنى فعلا ياأستاذ أن أترك اللجنة النقابية ؟

قلت غاضبا : هل تكلمت أنا عن شىء كهذا ياسيد ؟ هل قلت لك اترك اللجنة او أبق فيها ؟ ماشأنى بذلك ؟

وسرت مندفعا نحو باب الخروج لكن سيد جرى ورائى وامسك بذراعى قائلا : أرجوك لاتغضب . انا أسألك لأنى أحاول أن أفهم .

ـ وتحاول أن تفهم أمام كل الموظفين فى صالة الوزارة ، لكى يقولوا انى أحرضك على اللجنة النقابية ؟ هل تنقصنى المشاكل ياسيد ؟

ـ حقك على . لم اكن أقصد ذلك . وعدنا نسير مرة اخرى صامتين فى الطريق .. كان لابد أن نمر أمام مبنى الاذاعة فى الطريق الى مكتبى ، وهناك أمام ذلك الصرح الحجرى المربع كانت السيارات كثيرة تصطف متلاصقة خلف بعضها البعض . وكان المنادى يزعق ويجرى هنا وهناك ويحرك السيارات الخالية يدفعها بظهره مثلما كان يفعل سيد أيام عمل البورصة . وحين اقتربنا منه تقدم من سيد وصافحه فسأله سيد وهو يضحك كيف حال الشغل يامحمود ؟ فقال محمود وهو يسبل عينيه الحمد لله .. ماشيه .

ولما عدنا نسير من جديد قال سيد اذن فبماذا تنصحنى ياأستاذ ؟ انت متعلم وطيب ، وأنا مازلت جديدا فى العمل ، فبماذا تنصحنى ؟

سكت لحظة وأخيرا قلت أنا بصراحة ياسيد لاأعرف كيف أنصحك . ولكن فكر فى أولادك قبل كل شىء .

قال ولكنى لاأفكر الا فى أولادى .

ثم أشار بيده للسيارات فى الطريق وقال لكى لايجرى واحد منهم مثل أبيه وراء العربات فى الشارع .

- أنت الان موظف ويمكن أن تربى أولادك ليكونوا أحسن من ذلك .

- ولو حدث لى شىء غدا ؟

كنا نقترب من البناية التى فيها مكتبى فوقف سيد على الرصيف محنيا رأسه ومستغرقا فى التفكير وأنا الى جواره ، أعرف أنه يريد أن يقول شيئا ولا أستطيع أن اتركه ، وأخير قال - هل تذكر ماقالته الهانم التى معك فى المكتب ؟ قالت أننى كنت أعيش من خيرهم . ولكنى سأحكى لك حكاية . فى بلدنا فى الصعيد كان أبى بالفعل يعيش من خيرهم . كان فلاحا أجيرا يزرع أرض الأسياد وكانت عيشتنا مرة . رغيف القمح لم نكن نذوقه الا فى المواسم ، وكان دخوله للبيت عيدا . بقية السنة بالطبع لم نكن نعرف فيها غير خبز الذرة . ومع ذلك فلم يترك أبى البلد لهذا السبب ، ولكن فى مرة كنت أرجع معه فى اخر النهار بعد أن ساعدته فى العمل اليوم بطوله وكنا نركب حمارا . وقتها كان عمرى سبع سنين أو ثمانى سنين . ورأى أبى فى آخر الطريق واحد من أسياد البلد يأتى ماشيا على قدميه فقفز من فوق الحمار ، وأخذ يغمزنى ويجذبنى لكنى لم أفهم وبقيت مكانى . لم أكن أعرف أن على الأجير أن ينزل من فوق دابته حين يكون المالك ماشيا ، أو حتى عندما يركب . كنت أستغرب مايفعله أبى وبقيت فوق الحمار . ولكن عندما وصل ذلك الرجل الينا وكان أبى يرفع يده عند رأسه ويحييه بصوت عال مد يده وصفعنى على وجهى وقال أسمع كلام أبيك يا ولد انزل . فنزلت ، وربما أكون قد سقطت مع صفعته ولكن الرجل مشى دون أن يلتفت وراءه وهو يقول لأبى علم ابنك الادب ياقناوى . قلة الادب كفر . ولم يقل أبى شيئا . أذكر أننى كنت أبكى حتى وصلنا الى البيت وأن أبى ظل صامتا طول الطريق . ولكن فى البيت قال لأمى استعدى للسفر ياامرأة . لن نبيت فى هذا البلد ليلة أخرى . وفى الصباح باع كل شىء وجاء الى القاهرة . بدأ يسرح بعربة فاكهة وأدخلنى مدرسة لم أبق فيها طويلا . مات وعمرى عشر سنين وترك أخوة أصغر منى وكان يجب أن أشتغل . كنت أشتغل بالنهار وبالليل . فى النهار أسرح بالامشاط واللبان فى عربات الترام . وبالليل أساعد واحدا من المنادين . ومع ذلك فلم تكن قروشى تكفى وأضطرت امى أن ترجع للبلد مع أخوتى لتعيش مع أقاربها هناك . وكنت

أرسل لها ولهم ما أستطيع ومازلت أرسل ما أستطيع ولكنى لما كبرت قليلا وجدت أن القاهرة لا تختلف عن الصعيد وأن ما هرب منه أبى هناك وراءنا هنا . كان أسياد البلد أيضا يركبون وكنت أجرى وراءهم من أجل قرش . هذا هو خيركم الذى عشت عليه يا استاذ ولا أريد لأولادى أن يعرفوه .

كان سيد منفعلا حين انتهى من حكايته وعيناه الصغيرتان تلمعان فى محجريهما وهو يثبت نظرته على لكننى قلت له نافد الصبر تقريبا نعم . نعم ، أنا أعرف تماما هذا المرض ياسيد ، فقال بدهشة أى مرض يااستاذ ؟

فقلت وأنا أسير بسرعة وسيد الى جوارى أسمع ياسيد . الاف من الناس يصفعون كل يوم ولكن قليلا منهم من يشعر بالاهانة او الغضب قليل منهم ياسيد من يصيبهم ذلك المرض الذى أصاب أباك والذى يصيبك أنت الان . مرض العدل .

قال سيد لا أفهم ، نورنى الله يرضى عليك ، أنا أريد أن أتعلم . أقلع عينا وأعطيها لمن يعلمنى .

فقلت ستتنور أنت بنفسك ياسيد دون أن يعلمك احد .

كنا الان على ناصية الشارع الجانبى الذى يقع فيه مكتبى فأشار سيد الى البورصة المهجورة بنوافذها المظلمة وقال ولكن أنا بالفعل تنورت . كل شىء قد تغير ، والبلد الان أصبح بلدنا ، الثورة جعلت البلد بلدنا . ويجب أن نساعدها ، أليس كذلك ، يا أستاذ ؟

أخذ سيد يتطلع الى مستقهما لكننى قلت بلهجة عابرة ربما . ثم لوحت له بالاوراق التى أعطاها لى وقلت سأكتب لك هذه المذكرة بلغة الحكومة ، فمر غدا لتأخذها .

وتركته واقفا على الناصية ومشيت بسرعة نحو مكتبى .

لكن سيد لم يأت فى اليوم التالى ولا الذى بعده ، وخشيت بالفعل أن يكونوا قد فصلوه من الوزارة فاتصلت بحاتم بالتليفون لأسال عنه

قال حاتم : ألا تعرف حتى الان ؟ طلبوه للتجنيد وربما يكون قد سافر الى اليمن بالفعل .

ـ اليمن ؟ لكن عنده أولادا .

ـ لايمنع هذا من أداء الواجب ياستاذ . نحن الان فى حرب . ومن يدرى ؟ ربما يكون سفره فى مصلحة أولاده . المرتب هناك أفضل .

- فهمت . ولكنه ترك معى مذكرة بخصوص مسألة أيام الجمعة ، فماذا أفعل بها .

فضحك حاتم وهو يقول : أرمها فى البحر .

سألته ربما يحسن أن أعطيها لزملائه فى اللجنة ؟

فقال : أخرجنى أنا من الموضوع ثم أفعل بها ما تشاء . وعلى العموم بقية زملائه عاقلون .

ولما وضعت السماعة وظللت ساكنا سألتنى ضحى دون أن ترفع رأسها عن كتاب تقرأه : من الذى سافر لليمن ؟

قلت : سيد القناوى .

فقالت بلهجة عابرة : مسكين .

قلت : عنده أولاد وكما فهمت منه فليس هناك من يرعاهم غيره . أخوته الاخرون عادوا الى بلدهم فى الصعيد ويعملون هناك .

رفعت ضحى رأسها عن الكتاب وقالت : آه ، اذن فأنت تعرف الشفقة أيضا

فهمت أنها تهاجمنى لأكف عن الكلام فى الموضوع فسكت .

ولكنها راحت تقول ومع ذلك فربما يكون هذا طبيعيا جدا . كما فهمت منه وكما سمعت عنه فهو مؤمن جدا بالثورة . فلماذا لا يدافع عنها ؟ حتى ولو كان ذلك فى اليمن ؟

وربما هو فى ذلك اليوم نفسه أو فى يوم قريب منه كنا نسير معا فى شارع قصر النيل بعد أن خرجنا من العمل عندما توقفت ضحى فجاة فى الطريق ممتقعة الوجه وتمتمت بصوت لايكاد يسمع حتى هذا ؟

كانت تقف أمام فاترينة زجاجية خالية عليها لافتة «المحل للبيع بالجدك» واخذت ضحى تهز رأسها وهى تقول بصوت خافت حتى «سيستوفاريس» سيرحل من هنا أيضا ؟ ولم أقل شيئا ولكن ضحى التفتت الى فجاة وكأننى أتهمها بشىء وقالت ليس لأنه محل فراء . أنا لا يهمنى الفراء ولا ألبسه ولكن أنظر . أنظر الى الشارع وقد خلا من ذلك المعطف الفضى الذى كان حتى الامس ينير هذه «الفاترينة» فى هذه الناصية ؟ أنا لاأقصد أن .. هل تفهمنى ؟ أنا أعنى أن الشارع أيضا حياة ، أجزاءه كأعضاء الجسم وحين تغيرها فكأنك تبتر عضوا من جسد .

وأشارت ضحى بيدها الى ناصية شارع الشواربي وقالت فى مكان هذه

العمارة ، هناك كان مقهى واجهته من الاشجار . كنت تعبر المدخل وتنزل سلمتين او ثلاث سلالم فاذا بك فجاة تترك مدينة الطوب والحجر وتدخل فى جنة من الأزهار والأشجار ، ممراتها مرصوفة بالرمل النظيف وموائدها تتناثر فى مقاصير وسط الأشجار . وكنت آتى الى هنا مع زميلاتى أيام المدرسة وكنت أحب أشجارها ، بل أظن أنه كانت فيها شجرة مانوليا تتوهج فى الربيع بأزهارها الحمراء . لست متاكدة هل كانت شجرة المانوليا هناك أم أنا أحلم أنها كانت هناك . ولكن منذ هدموا هذا المقهى وبنوا هذه العمارة القبيحة مكانه لاأنظر الى هذا الجزء من الشارع تماما كما تتجنب النظر الى شخص مبتور الذراع ، هل تفهمنى ؟ ليس لأنه محل فراء .. كيف يسمحون بذلك ؟ هل تفهمنى ؟

قلت أحاول . وخجلت أن أسألها ماهى شجرة المانوليا ؟ .

وعادت ضحى تمشى صامته ومكتئبة وأنا الى جوارها لاأتكلم . كان عدد البنات اللائى يرتدين «المينى جيب» ويتمشين فى الشارع يزداد وعدد الرجال الذين يحملقون فيهن أو يقولون تعليقات بذيئة أقل ، ولم أعد أخجل من النظر اليهن وأنا امشى مع ضحى بل لم أعد أنتبه اليهن ، وضبطت نفسى أفكر بالفعل فى معطف الفراء الفضى الذى أختفى من «سيستوفاريس» وضبطت نفسى حزينا عليه ، ووصل الى من راديو مفتوح على آخره فى كشك للسجائر عبد الحليم حافظ وهو يغنى « أبو زيد زمانك . أبو زيد زمانك وحصانك الهمة والخدمة الوطنية » . وواجهنى تمثال طلعت حرب فى الميدان بدينا وفخيما وكانوا قد أزالوا تمثال سليمان الفرنساوى ووضعوا مكانه طلعت حرب ، ولكن فى محل فول على ناصية الميدان كان هناك راديو آخر وكان عبد الوهاب يقول بصوت حزين «الهوان وياك معزة» وكان زحام شديد وصياح أمام محل الفول لشراء السندويتشات وكأنها مظاهرة . وقلت لنفسى أنا لا أفهم ما يحدث فى البلد ، أنا لا أفهم ضحى .أنا أحبهافقط . أنا لاأفهم نفسى ويحسن أن أكف عن التفكير فى أى شىء .

وكنا نقف فى محل القهوة «الاكسبرسو» الصغير الخالى دائما فى ذلك الوقت من الظهيرة ، وكان صاحبه الخواجه يجلس على مقعده العالى أمام آلته الحاسبة وهو ينظر فى شرود إلى الميدان. والى طلعت حرب .

وقالت ضحى بعد أن شربنا القهوة على فكرة أنا لم أسالك أبدا كيف

أجدت اللغات . قلت لى أنك تعلمت فى مدارس الحكومة فكيف تعلمت الانجليزية والفرنسية إلى هذه الدرجة ؟

قلت : عندما بدأت الدراسة أدخلنى أبى مدرسة إبتدائية خاصة للغة الانجليزية فى العباسية . ولكنى بعد أن أخذت الابتدائية كانت اختاى أيضا فى مدرسة الليسية وأصبحت المصاريف كثيرة على أبى . كان موظفا عاديا فى الحكومة يعمل بالشهادة التوجيهية ودخله محدودا ، وهكذا أدخلنى ثانوية حكومية لأن مصاريفها أقل . وهناك درست الفرنسية ثم واصلتها فى كلية الحقوق .

قالت دون أن تنظر الى : لا يكفى هذا . أظن السبب أنك تقرأ كثيرا .

- ربما . نعم ، كنت أقرأ كثيرا . الان لا أقرأ ولا حتى قليلا .

- ولماذا ؟

لم أرد على سؤالها ونظرت ناحية الميدان . ولسبب ما تذكرت سيد القناوى ولسبب ما قلت وفى وقت من الاوقات حيرنى الظلم أيضا .

قالت ضحى مندهشة : لماذا تقول ذلك وماذا تقصد بالظلم ؟ هناك أنواع كثيرة من الظلم .

- ضد كل أنواع الظلم . عرفت جيدا معنى الظلم منذ كنت صغيرا . كان أبى قاسيا جدا وكانت أمى وديعة جدا . تصحو مع الفجر ، تعد لأبى الحمام ، وتجهز له الفطور وتكوى ثيابه التى سينزل بها وتفعل بعد ذلك نفس الشىء لى ولأختى . ولكن أبى كان دائما ومنذ الصباح يجد سببا للشجار ولتأنيبها على تقصير من نوع ما .. كان فاترا أكثر مما يجب ، البيض لم يسلق جيدا ، أى شىء من أى نوع ، وحين يبدأ لايكف عن الاهانة والسباب حتى يخرج من البيت . وكانت أمى لا ترد . تعتبر ذلك حقا له . ولكنى لاأنسى يوما ، وكنت صغيرا فى المدرسة الابتدائية ولسبب ما ، لعلى كنت مريضا ، بقيت فى البيت معها وحدنا . وكانت أمى تربى دجاجا وكتاكيت فوق سطح البيت ، ويومها صعدت إلى السطح وهى هناك ولكنها لم ترنى ، كانت تجلس على مقعد صغير تلقى الحب للكتاكيت التى تجمعت حولها وتكلمها بصوت خافت . تحكى للكتاكيت كل ما يحدث فى الصباح كل الاهانات التى وجهها لها أبى وتقول ومع ذلك فأنا لم أفعل شيئا أبدا . والله أبدا . وأذكر أننى انسحبت قبل أن ترانى وأننى نزلت السلم جريا ورحت فى البيت أبكى . وماتت أمى صغيرة . هدها عمل البيت وهدها القهر .

ماتت أيضا صامته دون أن تشكو . ولم أستطع حتى أن أكره أبى أو ألومه . هو أيضا انهار بعد موتها . ظلت تتعاقب عليه امراض مختلفة حتى مات ، وكنت وقتها بالكاد قد تخرجت فى الكلية . لكنه لم يكن أبدا صديقا لى ونادرا ما كان يكلمنى أو أختى ألا لكى يعطينا أوامر أو ليسألنا عن أحوال الدراسة . كان وحيدا تماما . لم يكن له أخوة وانقطعت علاقته بأبناء عمومته وأخواله الذين يسكنون قريبا جدا ، فى قرية بجوار القناطر الخيرية . كان صعبا عليه أن تفتح نفسه لأحد ، حتى لولده ، ولم تكن لديه كتاكيت يشكو لها .

قالت ضحى : لم أكن أقصد أن أفتح باب كل هذه الذكريات السيئة ، فحاول أن تنسى . ثم ابتسمت وهى تتطلع إلى بعينيها السوداوين الجميلتين وقالت ولكن حدثنى كيف جرت النقلة بعد ذلك حتى أصبحت فاوست ؟

فقلت وأنا أبتسم أيضا لماذا تصرين على ذلك ؟ مالذى يجعلك تلحين على هذه الفكرة ، أنت أيضا كنت تقرئين أكثر منى ثم كففت عن القراءة من مدة فلماذا لاتكونين أنت فاوست ؟

لمعت عينا ضحى وهى تثبت نظرتها على وقالت ما أجمل هذه الفكرة ، نعم فاوست امرأة ولم لا ؟ من قال أن الرجل وحده هوالذى يمكن أن يسأم هذا الترتيب العقيم للدنيا وأن يتمرد عليه ؟ من الذى قال أن المرأة ليست لديها أشواق الرجل وربما أكثر لكى تكسر هذا الطوق المستحيل وتحلق وراء المسرات الخارقة وتستمع إلى الانغام المحرمة ؟ ألم تكن حواء هى التى أرادت أن تقطف الثمرة ؟

قلت فهل أنت مستعدة لان توقعى عقدا بدمك ؟ .

وفى تلك اللحظة لمست يدى - عفوا - يدها الموضوعة على الحاجز الخشبى ، لمسة رقيقة جدا ، فأجفلت ضحى فى رعب تقريبا وهى تسحب يدها وكاد الفنجان يسقط فأسندته بيدها الاخرى . وقلت مرتبكا أنا آسف .

كانت التماعة عينيها قد خبت وهى تقول لاتأسف ، لم يحدث شىء . ولكن بالطبع لاتأخذ كلامى حرفيا . لست سيئة إلى هذا الحد . أنا أعجبتنى الفكرة هذا كل شىء .

ثم حاولت أن تبتسم وهى تقول وعلى العموم أنا لا يمكن أن أكون فاوست . على الأقل لأنه كان عجوزا .

قلت لا . أقصد نعم . لم يكن صغيرا بحيث يقطف المسرة ولا عجوزا بحيث ينساها .

ولكنها لم ترد . كانت الان تنظر باستغراق الى فنجان القهوة الخالى مقطبة الجبين ورحت أنا أنظر دون هدف الى ظهر طلعت حرب .

- ٤ -

فكرت جيدا فى تلك الايام أن أطلب نقلى من المكتب الميت . قلت ربما كان ابتعادى عن ضحى وسيلة لنسيان ذلك الحب الميئوس منه لانهاء حيرة أن أظل معها ساعات فى مكتب واحد بمفردنا ، لا أستطيع أن أصارحها ولا أستطيع أن آمل فى شىء ولا أن أعترف لأحد بهذا الحب غير المشروع ، والذى لا مهرب منه مع ذلك . ولكننى كنت أعرف فى قرارة نفسى أننى لن أفعل هذا ، لن أطلب نقلى لأننى فى الليل ، كنت أستحث النهار أن يطلع لكى أراها ولكى أعيش تلك الساعات من الحيرة .

وجربت كل شىء .. الانهماك فى العمل صرت أخلق أعمالا غير مطلوبة . أنظم الملفات المركونة وأرسم من جديد خرائط تنظيم الوزارة التى لم يعد يطلبها أو يذكرها أحد . وجربت أن أشرب أحيانا بالليل ، ثم كففت عن ذلك عندما لاحظت أننى فى الصباح التالى أكون أكثر عصبية وأقل قدرة على السيطرة على نفسى . وأحيانا ، عندما كنا نبقى معا طويلا فى المكتب ، وأظل أنظر اليها دون أن تلاحظنى ، يبدأ شىء يطفو فى داخلى مثل سائل كثيف أكاد أغص به ، فأختلق عذرا وأخرج من المكتب ، أمشى فى الطرقات بسرعة ، يسلمنى كل طريق الى آخر دون وعى ، حتى يهدنى التعب ، فأجلس على أحد المقاهى أو أعود الى البيت .

ولم ينفع شىء حتى القراءة كنت قد توقفت عنها . ربما كان الشىء الوحيد الذى أفاد أيامها أن خاطبا تقدم يطلب يد سعاد كبرى أختى . كان مدرسا من جيراننا فى الحى وشقيقا لاحدى صديقاتها . قالى أنه لا يطلب شيئا ، لأنه هو بصراحة ، ليس لديه ما يدفعه لمهر أو شبكة ولكنه معار من الحكومة الى السودان وسيأخذ سعاد معه ويكونان نفسيهما هناك . ورحبت سعاد بذلك . ورغم ذلك فقد كان لابد من مصاريف الخطوبة والفرح ولأعطى أختى مبلغا من المال فسافرت الى القناطر الخيرية عدة مرات لابيع قطعة أرض صغيرة ورثناها عن أبى . وكنت سعيدا بأن أنهمك فى تلك الاشياء . ولكن مرة كانت سعاد تقيس واحدا من فساتينها الجديدة وتعرضه على فقلت لها : لايناسبك هذا اللون ياضحى .

ضحكت سعاد ونظرت الى قائلة يا .. من ؟ . من هى الست .. ولابد أنها رأت ذعرا فى وجهى فقد قالت بسرعة لكى تنقذنى من خجلى ماهو الاسم الذى قلته حالا والذى يشغل عقلك ؟ .

ثم تقدمت منى سعاد ، وكانت خضراء العينين كأمها وورثت عنها كل شىء تقريبا فقبلتنى فى جبينى وقالت أنت ضحيت كثيرا من أجلنا . ربنا يصلح الحال لسميرة أيضا لكى تتفرغ لهذه الهانم التى نسيت اسمها .

ولم أعرف كيف أتمكن من الحياة المألوفة من جديد بعد أن تزوجت سعاد وسافرت وصرت مرة أخرى مع ضحى وجها لوجه دون شاغل آخر . ولكن فى تلك الفترة بالذات طلبنى حاتم ذات يوم فى التليفون وقال تعال فورا الى مكتبى .

وبمجرد أن دخلت مكتب حاتم قام متهللا وتوجه الى ثم احتضننى وهو يقول مبروك . جاءت الموافقة على المنحة وعلى السفر الى ايطاليا .

رآنى ساكنا فقال فى شىء من خيبة الأمل : لاتبدو سعيدا .. قلت بلامبالاة : أنت تعرف ياحاتم لماذا كنت أريد المنحة وتعرف أن سعاد تزوجت وسافرت مع زوجها الى السودان . لم يكن الرجل يريد الكثير واستطعت أن أدبر نفسى .

قال حاتم وهو يعود الى مكتبه ويضرب كفا بكف : يارجل أذن ابستعد لزواج أختك الصغيرة أو لزواجك أنت . هل ستظل طول عمرك تنتظر الى أن تقع الفأس فى الرأس ثم تبحث عن حل .

جلست أمامه وأنا ابتسم وأقول معك حق ، ولكنى لا أعرف كيف أصلح نفسى . قل لى أنت ياحاتم كيف أصلح نفسى وأصبح مثلك .

فهز حاتم كتفيه وقال : أنت مدلل هذا كل ما فى الامر .. ضحكت فقال حاتم .. أنا لا أمزح . أنت تعرف أننى فى المدرسة الثانوية وفى الجامعة كنت من أفقر الطلاب ، تعرف أن أبى أرسلنى وحيدا من البلد لكى أعيش مع أبن عم له هنا وأتعلم . ولم يكن ابن عمه يرحب ببقائى عنده ، فكنت أختفى من بيته معظم النهار لأبقى معك أذاكر فى بيتك أو فى بيت أى زميل آخر . وكان أبى يرسل لى بالكاد ما يكفى أو أقل فقد كان فلاحا فقيرا لا يملك سوى بضعة قراريط .

والتفت حاتم بجانب رأسه الى النافذة والى مبنى الاذاعة الذى كان فوقه جنديان يحملان مدفعين رشاشين وكان شاردا تماما وهو يتكلم . قال : أنت

تعتبر نفسك شهيدا لأن لك أختين لابد أن ترعاهما وقد زوجت واحدة وتنتظر أن تزوج الاخرى . فماذا لو قلت لك أن لى فى البلد ثمانية أخوة لم يتعلم منهم أحد ، ولم يفلح أحد . من تاجر منهم فشل ومن يعمل بالزراعة تحول الى أجير ولو استجبت لمطالبهم من النقود كل شهر لكان معنى ذلك ألا آكل شيئا أنا وأولادى ، بل أن أستدين لكى يكتفوا .

ـ لهم حق عليك مع ذلك .

فالتفت الى وقال : نعم ، ولكنى عرفتهم حدودى . أقتطع من مرتبى مبلغا ضئيلا كل شهر وأرسله أيا كان ما يطلبون هم وأيا كانت رسائل الاستغاثة منهم . أعرف أن المبلغ الذى أرسله لا يكفى لشىء .. أمتلىء بالهم وبالعار حين أذهب الى البلد فأرى ما يعيشون فيه وأولادهم من فقر مهين . الفقر الذى يعنى الذباب فى عيون الأطفال والأقدام الحافية المتشققة . الجلاليب المسودة القديمة والوجوه الممتقعة جوعا . ولكن قل لى ماذا أفعل ؟ . اما أن أركب سفينتهم فنغرق معا واما أن أنجو بنفسى وأراهم يغرقون فقل لى ماذا أفعل ؟ .

قلت محاولا أن أضحك لأغير الجو هل نسيت يا حاتم ؟ . أنا الذى أسألك ماذا أفعل ؟ .

فقال وهو يهز رأسه لم تخدمنى كثيرا يوم أنقذت حياتى .

ـ أنا آسف .

فضحك حاتم لأول مرة ، هز رأسه كأنه ينفض همومه وقال : نعم ، فلنركز عليك أنت . لم أفهم أبدا سبب الخيبة التى حلت عليك . أنت الذى كنت أيام المدرسة والجامعة تمتلىء بالحماس والهتافات وصدورنا للرصاص فداؤك يامصر ؟ . هل هكذا تريد أن تنتهى ؟ . من المكتب الى البيت وبالعكس حتى تخرج الى المعاش ؟ . قل لى لماذا حقيقة هجرت السياسة وهجرت كل شىء آخر ؟ .

قلت ناظرا من النافذة الى رقعة السماء الزرقاء والى حدأت تحوم فى الفضاء دون أن تحرك أجنحتها لو أعرف يا حاتم سر الخيبة التى حلت على كما تقول لما سألتك ماذا أفعل ؟ .

ـ ولكنى قلت لك كثيرا ماذا تفعل . تعال وأعمل معنا فى الاتحاد الاشتراكى . جرب .

هززت رأسى لليمين واليسار وأنا أقول ليست عندى مواهب للخطب

والاجتماعات .

- بل أنت تخشى أن تتلوث يدك بأشياء لا تريدها . ربما يحدث هذا ، ربما تتلوث يدك ان عملت ولكن ياصديقى ما لم تمد يدك فلن تفعل شيئا أبدا .

ظللت صامتا فتنهد حاتم يائسا وقال اذن حاول أن تنتهز فرصة المنحة الى روما وفكر فى أى بداية جديدة بعد أن تعود . يجب أن تتغير ..

ثم ابتسم حاتم ابتسامة ماكرة وقال : وعلى العموم عندى لك خبر آخر سيجعلك أكثر سعادة . مدام ضحى .. ثم سكت وهو يتأملنى مبتسما فسكت أنا أيضا وقلبى يدق لكنى أجاهد لكى لا يظهر شىء على وجهى .

وأخيرا قال حاتم : مدام ضحى ستسافر معك فى المنحة .

أخذتنى المفاجأة ولكنى رسمت على وجهى تعبيرا جامدا وأنا أقول وما الذى يجعلنى أسعد بذلك ؟ .

فقال حاتم وهو يشير الى باصبعه ويتكلم بهدوء كأن هذه مسألة مفروغ منها : يارجل أنا أعرفك كما أعرف نفسى . أنت غارق فى حبها وعمك حاتم لا يخفى عليه شىء .

- أنت تتوهم ياحاتم وتريد أن ..

فشوح بيده وقال : دعنا من هذا الان . ألم تعرف حتى الان من هو ظهرها ؟ .

لم أرد فقال حاتم بعد فترة : الظاهر أنه شخص مهم جدا . لا تنظر الى هكذا فلو عرفته لقلت لك من هو . ولكن يؤسفنى يا عزيزى أن أقول انها لا ترافقك فى المنحة ولكن أنت الذى ترافقها .

- ماذا تقصد ؟ .

- أقصد أن الموافقة على المنحة لابد وأن تكون قد جاءت اكراما لها لا لك .

- ولكن لماذا ؟ .

فقال حاتم : وكيف أعرف ؟ . يبدو انها اكثر منك خبرة بالتنظيم الادارى .

ثم راح يضحك ضحكته المجلجلة ..

ولما رجعت الى المكتب سألت ضحى ان كانت تعرف أنها مرشحة لمنحة دراسية فقالت وهى تبتسم أنها لن تمانع لو رشحتها وستكون سعيدة . ولما نقلت لها ما قاله حاتم عن قرار سفرها بدت فى وجهها الدهشة .. تأملتها طويلا وقلت لنفسى أن دهشتها حقيقية وأنها لم تكن تعرف شيئا .

كنت أعتقد أن وصول الخطاب الرسمي من الوزارة بالموافقة على سفرنا فى المنحة يعنى أنه لم يبق سوى أن نسافر . ولم أتخيل أن تلك مجرد بداية لرحلة من الكفاح استغرقت شهورا وبدا أنها لن تنتهى مهما حاولت . فى البداية كان على أن أحضر شهادات من كل نوع يوقع على كل منها اثنان من الموظفين ثم تذهب تلك الاوراق مع طلب استئذان بالسفر فى خطاب مغلق عليه كلمة « سرى » . ويذهب ذلك الطلب الى جهات لا أعلمها (ولا يصح أن أسأل عنها أو أتعجلها) تغيب فيها طويلا قبل أن تعود وعليها كلمة « لا مانع » وفى ذيلها توقيع لا يقرأ . وبعد وصول كل ورقة من تلك الجهات تكتب مذكرة جديدة فى الوزارة ترفق بها ورقة اللا مانع وتمر بمراحل داخل الوزارة لتأخذ خاتم النسر ، ثم يكتب في ضوء المذكرة طلب جديد لاذن جديد من جهة أخرى وتبدأ الدورة . وفى تلك الايام صعدت سلالم لاحصر لها ، وذهبت الى كل أركان القاهرة . الى ادارة التجنيد وادارة السجلات المدنية ووزارة الخارجية ومصلحة الضرائب ومصالح أخرى كثيرة ووسّطت أصدقاء ، وفكرت مرات كثيرة فى العدول عن السفر ، ولكن ضحى كانت تأتيها تلك الاوراق فى مكتبها دون أن تتحرك . وكانت تسبقنى فى الاجراءات بمراحل . سألتها مرة عن السبب فقالت وهى تبتسم « لنا اصدقاء » ولم تزد ..

وفى مرة وانا أحمل أوراقى مرهقا لاحصل على توقيع جديد من حاتم قابلت عنده سيد القناوى . كان يلبس سترته العسكرية وقد ازداد سمرة ونحولا وبدا غريبا بشعره الحليق .. وعانقنى سيد بقوة وهو يقول اشكرك يا استاذ . بلغنى أنك لم تنسنى ، وانك أعطيت مذكرة ايام الجمعة للجنة .

فقال حاتم : هل تعلمت يا سيد فائدة الصبر ؟ . ها هى الحكومة قد حلت مشكلة أيام الجمعة فى الدولة كلها قبل أن تصل مذكرتك لاحد .

فقال سيد ولو لم تصلها مذكرات من غيرى يا أستاذ حاتم فهل كانت المشكلة ستحل ؟ . الحمد لله على أى حال .

ثم التفت سيد الى وقال هل وصلتك رسالتى من اليمن ؟ .

قلت : لا .

قال سيد: خسارة ، كنت أحكى لك فيها عن أشياء مهمة .

فقلت : ربما لهذا السبب لم تصل ياسيد . هناك رقابة كما تعرف ، فهذه حرب .

قال حاتم برزانة وهو يهز رأسه : سيد من أبطال صرواح وأنا فخور به .

فقال سيد : لا ياأستاذ حاتم . انا لم أذهب الى صرواح أنا فى قرية لم يظهر اسمها فى أى صحيفة .

لكن حاتم انشغل فى أوراق على مكتبه فنظر الى سيد وراح يكمل كلامه بصوت خافت وقال لم نضرب طلقة واحدة حتى الان ولا أعتقد أننا سنحارب هناك فالبلدة التى أنا فيها على شمال الدنيا ولا أظن أنها تهم أى مخلوق . ولكن فى هذه القرية مع ذلك بنى مهندسونا فصول مدرسة من صناديق الذخيرة وعالج اطباؤنا فلاحين لم يروا فى حياتهم طبيبا . رأيت عندهم هناك مرضا لم اسمع به عندنا . دودة طويلة تعيش تحت الجلد لو قطعت جزءا منها تظل تعيش رغم ذلك كالحية فى جسم الانسان . ولكنى رأيت أطباءنا يشرطون جلد اليد فى ظاهر الرسغ وعندما يظهر جزء من تلك الدودة يلفونه على عود كبريت ثم يتركون عود الكبريت مكانه وفى كل يوم يسحبون منها جزءا صغيرا ويلفونه ببطء ، وبعد أسبوع أو عشرة أيام يخرج الرأس الاسود الرفيع ، وبعدها ترى الواحد منهم يجرى الدم فى وجهه المصفر ويمشى كالحصان هكذا بدون دواء أو جراحة أو أى شىء ، هل تصدق ؟ .

قلت بدهشة : وما اسم ذلك المرض ؟ .

فضحك سيد وهو يقول : سألت طبيبا فقال اسما افرنجيا طويلا لم أحفظه .

ثم تطلع الى وقال بعينين واسعتين مندهشتين : ومع ذلك يا أستاذ فهم لا يحبوننا هناك . صدقنى هم لا يحبون المصريين ولا أعرف لماذا ؟ .

سمع حاتم ذلك فرفع رأسه من بين أوراقه وقال ما شاء الله ، ما مسألة يحبوننا هذه ياسيد افندى ؟ . هى علاقة غرامية ؟. هذا تاريخ .

ثم أشار باصبعه الى سيد قائلا : دعك من الحب والكره ياسيد . أنت ياسيد ياقناوى تصنع تاريخ الوطن فى صرواح .

فضحك سيد مرة أخرى وهو يقول فضها سيرة ياأستاذ حاتم . قلت لك لم أذهب الى صرواح . ما هذا الفأل ؟ . سأرجع فأجد نفسى منقولا الى صرواح لكى ترتاح .

قال حاتم لكى تصنع التاريخ .

فقال سيد مقطبا : لا وحياتك ياأستاذ حاتم . لكى أموت فى الجبل . كلامك ياأستاذ مثل كلام التوجيه المعنوى .

وتطلع سيد الى حاتم فى تحد وقال أسمع أنا لا يهمنى أن أموت .. كلنا سنموت . ولكن لماذا أموت من أجلهم ماداموا لايحبوننا ؟ .

ووجدتنى أقول أسمع ياسيد . أظن أننى أعرف ما يريد الاستاذ حاتم أن يقوله وأنت كذلك تعرفه وأن لم تدر . هل تعرف أن مصر فى الزمن القديم ، قبل الفراعنة كانت ممالك كثيرة متفرقة ؟ .

فهز سيد رأسه عارفا : نعم ، نعم . مينا موحد القطرين . جاءنا فى امتحان الاعدادية . وأذكر أنه كان صعيديا .

ـ بالضبط ، ولكن كيف وحد مينا القطرين يا سيد ؟. ألم يحارب من أجل ذلك ؟. أخذ الامر وقتا قبل أن تصبح هنا بلدا واحدا نفهم بعضنا البعض ونحب بعضنا البعض . وأظن أن الاستاذ حاتم يريد أن يقول أننا العرب للان مثل مصر فى الايام التى سبقت مينا . وعندما تأتى الوحدة فسنفهم بعضا البعض ونحب بعضنا البعض . ولكى يحدث ذلك فأنت تحارب مثل مينا ، وما لم يحدث ذلك ياسيد فسنضيع بلدا بعد بلد كما حدث فى فلسطين . هذا هو مايريد الاستاذ حاتم أن يقوله .

تطلع سيد مبتسما الى حاتم وقال : مادام الاستاذ يقول هذا الكلام فلماذا لا تأخذه معك فى الاتحاد الاشتراكى ياإستاذ حاتم ؟ .

فقال حاتم وهو يهز رأسه : الاستاذ ينتظر دعوة على بطاقة ليشترك معنا فى السياسة وفى خدمة البلد .

قلت بشىء من الانفعال : هل نضحك على أنفسنا ياحاتم ؟ . ما دخل البلد فى هذه الاجتماعات وهذا الخطب ؟ . من يريد أن يخدم البلد حقيقة ياحاتم يفعل شيئا محددا ولا يتكلم .

فقال حاتم وهو يحذرنى بعينيه من أن أواصل هذا الحديث أمام سيد : أو يذهب الى روما .

قلت : أو يعمل فى أصغر مكان ولكن من أجل البلد بالفعل ، لا من أجل نفسه وحدها . أن يتواضع .

قال سيد وقد فهم أن حديثنا لا يخصه ... ما حكاية روما ؟ .

ولما عرف قال لى : مبروك يا أستاذ متى ستسافر ؟

فقلت وانا أتطلع يائسا للاوراق التى فى يدى : بالطريقة التى تمشى بها هذه الاوراق ياسيد فأظن اننى سأسافر بعد ان تتم الوحدة العربية .

فقال حاتم : لا ، قبل ذلك بكثير مادامت معك مدام ضحى .

قال سيد : معك ضحى هانم ؟ .

قلت وأنا أتطلع فى عينى حاتم : نعم .

فقال سيد : أعوذ بالله . ! اليمن أرحم ..

ثم قام وهو يقول استأذن أنا فالاجازة قصيرة وورائى أشياء كثيرة .

ولما خرج سيد قال حاتم بانفعال وهو يقف فى منتصف الغرفة : لماذا قلت هذا الكلام أمام سيد ؟ .

فقلت منفعلا أنا أيضا : ولماذا قلت أنت ما قلت ؟ . أسمع يا حاتم ، هذا الولد برىء وأنا أحبه .

ـ وأنا أيضا أحبه ، فماذا فى ذلك ؟ .

ـ دعه فى حاله . هو يصدق كل ماتقول ، فلا تقل له سوى ما تقتنع به حقيقة فى قلبك .

تقدم حاتم فجلس على المقعد المواجه لى متجهما . وفهمت أنه يبذل جهدا ليسيطر على نفسه وعلى كلماته لانه حين تكلم قال بهدوء مبالغ فيه : اسمع ، منذ مدة وأنا ألاحظ تلميحاتك ونظراتك وكانت تتهمنى بشىء . قل لى هل سمعت عنى أننى أسرق ، أننى مرتش أو أستغل نفوذى ؟ .

قلت : بالطبع لا . لا يمكن أن يخطر هذا ببالى . لو كنت شيئا من ذلك لما عرفتك .

قال حاتم وقد بدأ يحتد قليلا : اذن فماذا تريد منى أكثر من ذلك ؟ . فى مكان مثل مكانى كأنى أقفز الحواجز كل يوم ولا أعرف هل سأبقى حتى الغد أم لا . لم أولد ثريا ، وليس لى قريب من الضباط الاحرار ، وكل ورقة يخاف مدير المستخدمين من التوقيع عليها يرسلها الى ، أليس من حقى أن أحمى نفسى بالدخول فى التنظيم الذى صنعوه هم ؟ .

ـ ولكن سياستهم لعبة خطرة ياحاتم . يمكن أن تحميك ويمكن أن تقضى عليك .

ـ أعرف جيدا هذا الخطر . ولهذا ألعب اللعبة بالقواعد التى وضعوها . لهذا لم أوافق على اندفاعات سيد القناوى لكى لا أضيع معه . بكل صعوبة ياصديقى أوجه شراعى فى هذا البحر لكى لا أغرق فيه . فهل لديك حل

آخر ؟ .

فكرت قليلا ولم أرد .

فقال حاتم ان صدقتنى فى ذلك فصدق ايضا أننى أحاول أن أخدم اسرتى حين أعمل بالسياسة .

نظرت له مندهشا فهز رأسه ليؤكد كلماته وقال لن أستغل نفوذى من أجلهم بطبيعة الحال . ولكن لو انصلح حال البلد ككل فسينصلح حال هذه الاسرة التعيسة مع حال البلد . أتخيل أن أعيش حتى أرى أولاد أخوتى الذين يتعلمون الان فى المدارس الجديدة التى بنتها الثورة فى قريتنا وقد كبروا . أتخيلهم يعملون أشغالا أفضل من آبائهم ويعيشون حياة اكثر انسانية ونظافة .

ثم وقف حاتم ليعود الى مكتبه وقال وهو يسترد نفسه ويضحك بصوت عال لست انتهازيا تماما ياصديقى . ليس مائة فى المائة على الاقل كما تظن . لا أخدعك ولا أخدع سيد ولا أخدع احدا ، ولكنى أحاول أن تسير المراكب . هات الاوراق التى تريد أن توقعها ..

- ٦ -

وأخيرا مطار القاهرة . أخيرا السفر الى روما ..

فى المطار توقعت أن أرى زوج ضحى لأول مرة . كنا هناك قبل الفجر فى ذلك الليل من أوائل سبتمبر وكان المطار موحشا واضاءته رديئة ، يتحرك فى قاعته الواسعة مسافرون قليلون وجنود كثيرون يلبسون زيا أسود . وصلت ضحى وحدها ولكنها قالت سيأتى . وقفت فى القاعة تنتظر وقالت لابد أنه سيأتى . أخذت تنقل حقيبة يدها بعصبية من يد الى أخرى ثم قالت أظن أنه سيأتى . ترك البيت بعد نصف الليل وقال انه سيذهب الى مشوار قصير ثم يلحق بى فى المطار . تطلعت الى بلهفة وهى تقول ذلك كأننى أستطيع أن أفعل شيئا .

ولكن عندما أعلنوا فى مكبر الصوت عن الطائرة التى سنركبها كان علينا أن ندخل وظلت هى تتطلع وراءها كل خطوتين . لم نتبادل كلاما كثيرا فى الطائرة وظلت ضحى نائمة معظم الوقت أو تظاهرت بذلك .

وفى مطار روما صاح شرطى الجوازات حين أمسك أوراقنا : آه .. ايجيتوا! ثم قال كلاما كثيرا أخر وهو ينظر نحونا بسخرية . وفاجأتنى ضحى حين ردت عليه بالايطالية وقالت شيئا جعله يقطب جبينه ثم يختم

جوازينا بعنف ويعطيهما لنا دون كلمة . وبينما نخرج من المطار قالت ضحى كان هذا الرجل يقول هاهم المصريون الاشتراكيون الذين يطردون الايطاليين من مصر فقلت له نحن لم نطرد أحدا ولكن الايطاليين فى مصر لا يريدون أن يعيشوا فقراء مثلنا أو كما يعيشون فى ايطاليا .

قلت لها مازحا ومن أين جاءتك هذه الثورية ؟ فقالت بهدوء لا غرابة فى أن أحب بلدى . لا أحد يحترمك ان لم تحب بلدك وتدافع عنه .

لم أكن أريد هذه المناقشات فسألتها ولكن كيف تتكلمين الايطالية بهذه الطلاقة ؟ كنت احسبك تعرفين الفرنسية والانجليزية فقط .

شمخت برأسها بطريقة تمثيلية وهى تقول ياأستاذ مربيتى وأنا صغيرة كانت ايطالية . أعرف روما من حكاياتها كأننى جئتها ألف مرة ، معي أيضا كتب وخرائط ، اليوم سأريك روما أفضل من أى مرشد سياحى .

كانت ضحى تبذل جهدا لتتغلب على الكآبة التى لازمتها منذ كنا فى مطار القاهرة . وعندما ركبنا التاكسى . راحت تتطلع من النافذة وتقول بحماس أنظر هذا تمثال دافنشى .. وهذه بوابة قسطنطين .. لا ، لست متأكدة سأسأل سائق التاكسى ما أجمل هذه الحدائق وكل أشجار الصنوبر هذه .. .

ظلت تتكلم هكذا طول الطريق ولم أعرف ان كان حماسها حقيقيا أم أنها تمثل . ولكنى كنت مجهدا من السفر فتركتها تتكلم وأنا أتابع اشارات يديها بابتسامة ثابتة حتى وصلنا الى الفندق .

كانت واجهة ذلك الفندق الذى حجز لنا فيه معهد التدريب أعمدة رومانية سامقة وفى مدخله تماثيل من رخام ابيض . تقليد للنحت الرومانى القديم . أما أرضية المدخل فكانت مفروشة بسجاجيد حمراء ويتدلى من سقفه نجف مستدير وضخم من الكريستال . ولكن حين صعدت الى غرفتى وجدتها كغرف فنادق الاسكندرية القديمة : رائحة الخشب العتيق والسجادة المنحولة الوبر وأدراج الدواليب التى يعذب فتحها وعندما تفتح فى النهاية تظهر من الدخل متربة ومبقعة . كنت مع ذلك متعبا جدا فغيرت ملابسى بسرعة ونمت .. .

وفى العصر أيقظتنى ضحى بالتليفون . قالت ياأستاذ جئت الى أوربا لكى تنام ؟ بعد نصف ساعة سأقابلك فى مدخل الفندق .

كان العرق يغمرنى عندما استيقظت واكتشفت أن روما لا تقل حرا عن

القاهرة فلبست قميصا وبنطلونا ووقفت أنتظر ضحى عند المدخل . خرجت الى الشارع ووقفت أمام باب الفندق . ورأيت عند ناصية الشارع نافورة يخرج منها الماء من جرة يحملها عجوز مرمرى ملتح ليس لعينيه حدقتان فبدا كالضرير . وعلى سور النافورة كان يجلس أزواج من البنات والاولاد يلحسون الجيلاتى ويتبادلون القبلات .

وخاطبتنى من خلفى فتاة بالايطالية . نظرت اليها ، كانت صغيرة فى حوالى الثامنة عشرة وجميلة جدا . قلت لها وانا أشير بيدى أمام فمى لا أتكلم الايطالية فأمسكت يدى المدودة وخطت بأصبعها رقما على راحة يدى وهى تقول بالانجليزية « ٢٥ دولارا » . ثم رسمت باصبعها علامة زائد وقالت « أجرة الفندق » . وفى تلك اللحظة ظهرت ضحى وقالت وهى تضحك من أولها يارجل ؟ أنت لاتضيع وقتك !

حاولت مرتبكا أن أشرح لضحى ما حدث ولكنها كانت تقول شيئا للفتاة بالايطالية . وضحكنا معا ثم مشت البنت الايطالية .

قلت : كنت أنتظرك ثم جاءت هذه ..

فقالت وهى تضع يدها على جيب قميصى : أفهم ولاداعى لأن تقول شيئا . ولكن اسمع منى أول درس فى روما : لاتضع محفظتك فى جيب القميص ، هل تسمح ؟

وقبل أن أرد سحبت محفظتى ووضعتها فى حقيبة يدها . كانت ضحى الان سعيدة . نسيت حزنها فى الصباح أو قررت أن تنساه فبدا وجهها مرتاحا ومبتهجا . كانت تلبس فستانا أبيض من حرير شفاف منقوش بزهور حمراء بنفسجية صغيرة وقد فرقت شعرها الاسود الغزير من منتصفه بامتداد رأسها وتركته ينسدل فى كتلتين أمام كتفيها وفوق صدرها على طريقة التماثيل المصرية القديمة . وكنت انا أيضا سعيدا وأنا أمشى الى جوار هذة الجميلة .

قالت ضحى سنمشى على أقدامنا ونكتشف روما ، أول شىء نفعله سنأكل « بيتزا » فى شارع « فيافينيتو » كأى سياح محترمين .

كانت ساعتى تشير الى السابعة ولكن نور النهار كان قويا وبدا أن الغروب لايزال بعيدا وأدهشنى ذلك .

وقبل أن نصل الى شارع « فيافينيتو » كانت ضحى تتوقف لحظات أمام واجهات المحلات تلقى نظرات خاطفة على البلوزات والاحذية

وحقائب اليد وتقول بدهشة : ما هذه الاسعار ؟ .
كيف سنشترى حتى الهدايا الضرورية ؟ معى قائمة طويلة .
وفى « فيافينيتو » جلسنا فى واحد من المطاعم التى تصطف مقاعدها وموائدها على الرصيف . كانت مفارش الموائد حمراء وفوق رءوسنا أيضا بامتداد المحل مظلة كبيرة حمراء مائلة تحجب الشمس ومن مكانى على الرصيف رأيت الايطالية التى كلمتنى أمام الفندق . كانت تقف على الرصيف الاخر تكلم رجلا يعلق على كتفه كاميرا ثم شبكت ذراعها فى ذراعة وسارا معا .

وبينما ننتظر « البيتزا » أنا وضحى شربنا نبيذا . أخذت تشرب وتضحك . تصب النبيذ فى كأسها وتشرب الكأس فى جرعة واحدة ثم تنزل الكأس عن فمها وهى تمسك الزجاجة باليد الاخرى لتصب من جديد . وبعد الكأس الرابعة بدأت شعيرات الدم الرفيعة تظهر فى بياض عينيها وارتفعت ضحكاتها فأخذت منها الزجاجة ووضعتها على الارض . مدت يدها نحوى فى لهفة وقالت : لا . أرجوك لا تفعل هذا . دعنى أشرب كما أشاء . نحن الان فى روما . أنت لا تعرف لماذا أشرب . أرجوك لا تفعل هذا .

قلت لها : لا . طالما أنت معى فلن تشربى أكثر من كأسين . أنت لا تريدين أن يتكرر هنا ما حدث فى القاهرة ، أليس كذلك ؟

رجعت فى كرسيها وراحت تتطلع الى بعينين ضارعتين ثم بدا فى وجهها يأس وقالت ليكن . معك حق . وأخذت تأكل فى صمت .

أردت أن أسألها لماذا تشربين ؟ ولكنى قلت لنفسى يحسن أن نترك هذا الموضوع .

وحاولت ضحى أن تسترد نفسها من جديد ونحن نستكشف روما على أقدامنا . عند نافورة « تريفى » أغمضت عينيها ورمت فى الماء عملة معدنية من وراء ظهرها كما يفعل الجميع .

رميت أنا ايضا . فقالت وهى تضحك : ضمنا أن نرجع روما معا مرة أخرى . ماذا تمنيت وأنت تلقى عملتك ؟

قلت : لا شىء وكل شىء .

فضحكت ضحكة قصيرة أخرى وقالت هذا هو أنت بالضبط . ستنتهى نهاية سيئة .

وفى ميدان اسبانيا طلعنا السلالم العالية التى تحف بها الزهور الملونة على الجانبين . وقرب الدرجات الاخيرة كانت ضحى تلهث وتستند الى كتفى ولما رأينا المسلة المصرية فوق السلالم قالت بكلمات متقطعة : اد التحية .. الى .. جدك .

فى تلك الشمس المتأخرة كانت المسلة مشرعة كسيف قانى الحمرة يغوص مقبضه وسط دائرة من زهور حمراء وبنفسيجية ووردية ولكنى رأيت المسلة غريبة جدا ووحيدة فوق تلك السلالم ووسط ذلك الميدان . التفت الى ضحى لاقول لها ذلك فرأيتها تجلس على احدى الدرجات مثل الكثيرين ، تظلل عينيها بيديها من الشمس وتحدق بنظرة شاردة .

ثم مشينا . نافورات أخرى ، وقباب كنائس ، وتماثيل فى كل شارع ومن بعيد أثر ضخم مستدير داكن وله نوافذ مستطيلة محدبة كالبواكى . قالت ضحى هذا هو الكوليزيوم . سنراه غدا . ودخلنا حديقة صادفتنا . كانت الشمس فى طريقها للمغيب الان والحديقة توشيها أحواض زهور من كل نوع . زهور كبيرة ومتفتحة ومعطرة . وكانت ضحى تعرف أسماء تلك الزهور جميعا . تنحنى عند كل حوض وتتأمل الزهور ثم تقول بانتصار عندى مثلها فى الحديقة ثم تتلفت حولها وتقول ولكن ليس بهذه الكثرة ولا وسط كل هذه الخضرة . وقلت كنت أظن الازهار لا تكثر الا فى الربيع فقالت ضحى هناك زهور لكل وقت . وبينما نسير رأينا تلك النافورة وسط الاشجار . وكانت نافورة صغيرة ، خيوطا رفيعة متوازية من الماء تصعد من الارض وتتوهج بالشمس الغاربة ، أوتارا نحيلة تمتد بالعرض وسط عمودين من رخام ويتكور الماء فوق أطرافها بلورات صغيرة متحركة وخاطفة . وقفنا أمامها ومدت ضحى يدها وأمسكت بيدى وقد تورد وجهها وقالت بلهجة عابرة وهى ترفع يدى وتشير الى تلك النافورة هل رأيت أجمل من تلك الشرفة من الماء والشمس تطل منها ؟ وفى تلك اللحظة سقطت

الشمس وصبغت أشعتها الغاربة سحبا مستديرة في السماء ، وفى تلك اللحظة أمسكت بيد ضحى الاخرى وأدرتها نحوى وقبلت شفتيها لم تبادلنى قبلتى وحين تراجعت أنا غمغمت هى .. فى هذا الغروب .. فى هذا المكان .. لن أعاتبك ولكن ..

ولا أدرى ماذا رأت في وجهى ولكنها قالت وهى تحرك يدها أمام عينى هوه ! . لاتبتئس هكذا ! ثم راحت تربت على خدى وشبت على قدميها فقبلتنى قبلة سريعة فى جبينى وكأنها تواسينى .

وانقذنى من حيرتى المطر الذى فاجأنا . لم ننتبه فى أول الامر حين بدأت تتساقط علينا تلك القطرات الكبيرة الساخنة . ولكن سريعا ما أصبحت تلك القطرات المتفرقة كثيرة وغزيرة فأخذنا نجرى وقد ابتلت كل ثيابنا . لم نجد ما نحتمى به غير شجرة عالية الجذع كثيفة الاغصان ، وقفنا تحتها متواجهين وكانت ترشح المطر من بين أوراقها فى قطرات متقطعة ذات صوت رتيب . وفى تلك العتمة المسائية تطلعت الى ضحى بعينيها الواسعتين وكان شعرها المبتل يلتصق برقبتها وبخدها وقالت ماذا سيحدث لنا ؟ فقلت لا أدرى ولكنى أحبك .

لم ترد ولفنا الصمت .

وفى التاكسى جلست ضحى بعيدة عنى ولم تحول وجهها عن النافذة . كانت تتطلع بنظرة ثابتة الى لا شىء .

وفى الفندق غيرت ثيابى بسرعة . كنت أدور فى الغرفة وأضرب قطع الاثاث بيدى وأكلم نفسى بصوت خافت نعم .. نعم .. أنا أحبها فماذا فى ذلك ؟ أنا أحبها فما هو ذنبى ؟ ثم اندفعت خارج الغرفة وعروق رأسى تنبض . صعدت الدرج بسرعة الى الطابق الذى فيه غرفتها . طرقت الباب وجاء صوتها من الداخل مرتفعا ولكن مرتعشا . قالت أدخل .

وكانت لاتزال بثوبها الشفاف المبتل . تقف فارعة أمام مرآة عند الحائط وقد تبعثر شعرها المغسول فى المطر وتجعدت خصلاته . لم تنظر الى عندما دخلت . ظلت تستند بيدها الى ذلك الافريز الخشبى لتلك المرآة وقالت دون أن تلتفت نحوى : كنت أعد ارقاما . بعد رقم

معين كنت سأغلق الباب بالمفتاح . ثم استدارت الى فجأة بوجه باسم وعينين لامعتين .

ولما مدت لى يدها قبلت تلك اليد ..

فوق الوسادة تناثر شعرها الاسود . وكانت خصلاته التى بدأت تجف تصنع أهلة صغيرة ومتداخلة فأخذت أجمعه ، اشم فيه رائحة المطر ورائحة ضحى .

كانت الان تبكى . قلت هل تشعرين بالذنب ؟ فمالت برقبتها بعيدا عنى

قلت : أحببتك من وقت طويل .

فقالت : أعرف

ـ لم اتعمد شيئا ولكنى أحببتك .

قالت دون أن تحول وجهها نحوى : أعرف . كنت أرى وأعرف . هذا المساء فقط اعترفت لنفسى أنى أنا أيضا أحبك ..

ثم مدت ذراعيها وضمتنى اليها بقوة وقالت بصت مكتوم ومتوتر نعم أنت لم تتعمد شيئا وأنا لم أتعمد شيئا ولكن هذا ما حدث فلا تقل أى شىء .

ولم أكن أستطيع أن أقول أى شىء ..

ولكن فجأة فرددت ضحى ذراعيها على الوسادة وراحت تهز رأسها لليمين واليسار وتضحك وتقول انا سعيدة . لاداعى للكذب . أنا سعيدة .. سعيدة .

كانت تضحك ضحكات خافتة وهى تهز رأسها وقد استنار وجهها وان علقت به الدموع .

ـ ٧ ـ

فى الصباح وبينما كنا نفطر فى صالة الفندق قالت ضحى وهى تبتسم :

ـ هل تعرف ؟ مرة قرأت لى الفنجان قريبة عجوز وقالت ستقضين شهر العسل فى روما ..

قلت : ها تتزوجيننى ياضحى ؟ اقصد بعد أن ..

مدت يدها أمام فمى وهى تقول هس .. كنت مخطوبة وقتها واتفقت معه

أن نقضى شهر العسل فى روما لنحقق النبوءة ، ولكن عندما تزوجنا كان مشغولا جدا . حصلت أزمة فى الوزارة أو انتخابات جديدة ، لا أذكر ، وكان شهر العسل يومين فى ميناهاوس . ولكنى نسيت .. لم يكن هذا هو شهر العسل .. أليس كذلك ؟

- اذن هل تتزوجيننى ؟

رفعت ضحى يديها فى يأس وقالت لم أنت غبى هذا الصباح ؟

كانت تجلس هناك . تلبس بلوزة وردية اللون وتصبغ شفتيها بطلاء خفيف ، وردى أيضا ، تتحرك بسرعة وتتكلم بسرعة ويتهدل شعرها فتبعده عن وجهها بأصابعها وهى تتكلم دون توقف لكنى لا أكاد أجد ما أقول . كنت لا أزال فى حلم وكنت غبيا فى ذلك الصباح .

فى الطريق قالت ضحى وهى تضحك ولكنها بداية غريبة لشهر العسل أن نذهب تلميذين الى مدرسة .

فقلت : ولكنى ساحب هذا المعهد لانى بفضله وجدتك .

كان ذلك المعهد شركة كبيرة لمعدات المكاتب وملحقا بمبنى ادارة الشركة فى وسط روما ، اكتشفنا أنه قريب من الفندق فذهبنا مشيا على الاقدام . وقالت ضحى هذا حسن سنوفر على الاقل ثمن المواصلات . قلت سأقضى معك وقتا أطول كل صباح ونحن نمشى الى هناك . هزت رأسها وقالت لو أنك لا تمل ذلك سريعا مثل كل الرجال . نظرت لها مندهشا فضحكت من جديد .

ولكنها فرحت كثيرا حين اكتشفنا أن الطريق الى المعهد يمر عبر حديقة صغيرة تتوزع بين اشجارها أحواض للزهور .

وحين وصلنا المعهد قابلتنا فى مكتب صغير شابة ايطالية شقراء مبتسمة الوجه . قالت وهى تصافحنا اسمى « باولا » وأعرف اسميكما . هل أعجبكما الفندق .

كانت تتكلم الانجليزية بسرعة وباللكنة الايطالية المميزة التى تمط نهايات الكلمات وتؤكد ايقاعها وقالت المسألة فى منتهى البساطة . ان كان لايعجبكما فيمكن أن نغيره ..

ولكن قبل أن نرد قالت كما تعرفان فقد بدأت الدورة منذ أيام .. كتبنا لكما عن الموعد بالضبط كما أرى فى هذه الاوراق ..

توقفت لحظة وقالت آه ! وهذه أيضا .. معكما واحدة من ميلانو لم تصل

حتى الان .. هل تعرفان ميلانو ؟ هنا فى ايطاليا ..

تبادلنا الابتسام أنا وضحى وكانت « باولا » مستغرقة فى النظر الى الاوراق وهى تلوح بيديها فى استنكار ثم قالت فى تهكم كأنها تحدث نفسها اذا كانت ميلانو تتأخر فشكرا لكما لانكما وصلتما من مصر ..

ثم رفعت رأسها وقالت وكأنها تذكرت شيئا كما تعرفان أيضا فنحن ندرس الادارة هنا على الطريقة الحرة وانتما كما أظن من بلد اشتراكى ..

شعرت على الفور بغريزة الدفاع كما شعرت ضحى بالامس وقلت « لباولا » : نعم نحن من بلد اشتراكى ولكن كما تعرفين فان لشركتكم فرعا كبيرا فيها ، أظن أنه أكبر فرع فى أفريقيا ، أليس كذلك ؟

كانت تتأملنى باستغراب وأنا أتكلم وعندما انتهيت انفجرت بالضحك وقالت لماذا أنت جاد جدا هكذا ؟ هل هذه أول مرة تأتى فيها الى ايطاليا ؟ قلت نعم . فقالت بعد فترة ستتعلم أن تأخذ الامور ببساطة ستجد هنا اشتراكيين وشيوعيين ورأسماليين والجميع يتكلمون ولكن لا أحد يقصد شيئا . وهزت رأسها فى توكيد وهى تكرر هنا لا يقصد أحد شيئا .

ثم التفتت الى ضحى وقالت ستكون المحاضرات بالانجليزية ولكنك تعرفين الايطالية على ما أظن .

سألتها ضحى بدهشة : كيف عرفت ؟

فقالت بلولا : ابلغنا مكتبنا فى القاهرة .

بدا على باولا بعض الارتباك فقالت وهى تسبقنا الى الباب سأعرفكما على الاساتذة وبقية الدراسين قبل المحاضرات . هناك بعض الدراسين من أفريقيا وآسيا .. هل قلت لكما أن اسمى باولا ؟ .. أرجو اذا صادفكما شىء فأنا هنا لحل أى مشكلة .

ولكن فى تلك الايام لم يكن هناك ما نشكو منه . فى تلك الايام كنا نحب .

كنا نحضر المحاضرات حتى ظهر كل يوم . نحرص على أن نجلس متباعدين حتى لا يكتشف أحد سرنا . نتبادل فى بعض الاحيان النظر من بعيد ونتفاهم . أشعر بالغيرة حين أسمع الايطاليين يبدون اعجابهم بجمال ضحى وبأناقتها . ولكنى أشعر أيضا بالفرح . أقول لنفسى ولكنها تحبنى أنا .

وفى ظهيرة ذلك اليوم من تلك الايام الاولى كنا سعيدين على ما أذكر ونحن فى طريقنا الى الكوليزيوم .

أرجأنا تلك الزيارة يوما بعد يوم ولم أكن مهتما بأن أذهب . كان يكفيني أن أبقى معها فى أى مكان . ولكن يومها ألحت على أن نذهب .

وفى الطريق وأنا أسير الى جوارها قالت أنظر كم هى جميلة هذه البنت الايطالية التى تمشى هناك . أنظر ! لن أغضب لو نظرت اليها .

فقلت وحتى لو نظرت اليها فلن أراها . أنا لا أرى غير ضحى .

قالت وماذا عن تلك التى تجلس بجانبك فى المعهد دائما ؟

- تلك البلجيكية ؟ .. تسألنى دائما عن معانى كلمات بالانجليزية صدقينى لا أذكر حتى اسمها .

- سأذكرك أنا ، اسمها كلير .

ولكنى لم أكن أكذب . لم أكن أرى فى روما أحدا غير ضحى .

وفى الكوليزيوم ونحن نخطو بحذر فوق تلك الاحجار البنية العتيقة قالت ضحى : احترس فنحن نخطو الان فوق بحر من دماء الشهداء .

ثم استدركت وهى تضحك ودماء الجلادين أيضا والوحوش المفترسة من كل نوع .

قلت مازحا ولكن لا تنزعجى كثيرا . قرأت مرة أن أكثر المتحمسين من جمهور المتفرجين على تلك المجازر الرومانية كن من النساء ... فقالت لا يدهشنى هذا . لايدهشنى أن تتشفى النساء فى الرجال وهم يسقطون تحت الوحوش والسيوف . بعد كل ذلك الاستعباد والقهر .

كانت قد سبقتنى على السلم ثم جلست على درجات احدى مقاصر المتفرجين وجلست الى جوارها ومن تحتنا بقايا الساحة المستديرة التى شربت كل تلك الدماء وحولنا بعض السياح يحملون الكاميرات ويصورون الأعمدة المتكسرة ، وأطلال الاقبية الحمراء فى الساحة والتى كانت تأوى الجلادين والوحوش .

عرفت وأنا أتكلم أننى أرتكب خطأ ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى ، قلت : ضحى . أى نوع من الرجال زوجك ؟

شعرت بجسمها يتصلب قليلا ولكنها التفتت الى وقالت بهدوء : من أى نوع ؟ .. فى منتهى الرقة والحساسية . فى منتهى الوسامة أيضا . ولكن مثل كل الناس الذين فى منتهى الرقة فهو أيضا فى منتهى الانانية . يعرف كيف يستغل قوته وكيف يستغل ضعفه .

- هذا كلام صعب على الى حد ما . لو بسطت فربما أفهم .

ـ هل هو صعب حقا ؟ اذن سأشرح لك . تسألنى من أى نوع ؟ هو من النوع الذى يمكن أن ينتحر لمجرد النكاية فى . أسوأ من ذلك . يمكن أن يموت ميتة طبيعية لمجرد أن يعذبنى .

لذت بالصمت ولكن الوقت كان قد فات . كانت ضحى الان تنسحب داخل نفسها . تكلم نفسها أكثر مما تكلمنى ..

ـ ألم أر ما فيه الكفاية من الرجال ؟ .. اتظن أننى لم افهم بعد كل ما عشته فى هذه الدنيا ؟ .. أنجبنى أبى بعد طول انتظار وكان يطمع فى ولد . ولما جئته أنا صمم على أن أكون أفضل من أى ولد . قبل أن أبلغ الخامسة كان عندى فى البيت مدرسة للبيانو ومدرسة للفرنسية . ولما كبرت قليلا أصبح يأخذنى معه الى الارض ويشرح لى الزرع والحصاد وعلمنى ركوب الخيل . كل ذلك قبل ان أدخل المدرسة . صمم أن أكون أعجوبة لا مثيل لها ، وكان يفاخر بى أمام أصحابة ويستعرض أمامهم مهارتى فى اللغات وفى البيانو وفى الحساب . وقتها كان ذلك يسعدنى ويشعرنى بالغرور وكنت أشترك معه فى لعبته . لم أعرف الا فيما بعد أنه سرق منى طفولتى وفرحى . بعد أن أنهيت الثانوية فى مدرسة الراهبات كان يريد أن يرسلنى الى أوربا لادرس الجامعة وأحصل على عدة شهادات . كان محتارا بين القانون والطب وادارة الاعمال . بين أن يرسلنى الى فرنسا أو الى أمريكا . ولكنى فاجأته وقلت له أننى أحب وأننى سوف أتزوج وأبقى هنا .. رفض أن يصدق وحارب ذلك الزواج بكل ما يستطيع . أظن أنه مازال حتى الآن يرفض أن يصدق . هل تعرف أنه هو نفسه تزوج بعد زواجى ؟ .. أظن أنه فعلها لكى ينتقم منى .

ـ ولكن أنت تزوجت لأنك أحببت ، أليس كذلك ؟

ـ بالطبع ، كيف كان يمكن ألا أحبه ؟ كانت كل البنات فى النادى يحببنه . كان هو النجم . صورته دائما فى الصحف ، يخطب فى الاجتماعات ، بعد سنوات سيصبح وزيرا . من كانت تستطيع ألا تحبه ؟ نعم أحببته ، وقال هو أنه يحبنى . ربما يكون بالفعل قد أحبنى . كنا سعداء فى شهر زواجنا الاول . ولكن بعد تلك الشهور بدأ يعود الى حياته الأولى . كان مدللا من النساء وكان ذلك يرضيه . كان هو أيضا يريدنى الزوجة الذكية الجميلة التى يتباهى بها . التى تقيم له الحفلات والولائم وتنجب له الاولاد بينما يعيش هو حياته الخفية اللذيذة بعيدا عنها . ولم تكن مغامراته

خفية حتى فى تلك الايام . لم يكن حتى يحاول اخفاءها . وتعلمت أيامها ان أشرب . تعلمت أيضا أن اقسد عليه لعبته فلم يعد يقيم تلك الحفلات . ولما حلت به الضربة صار يستعبدنى بضعفه وحاجته الى . هل فهمت الآن ؟

- فهمت كل شىء ، واعتذر لانى ذكرتك بهذه الاشياء .
- وهل نسيتها فى أى وقت ؟ وهل فهمت أنت حقا ؟ هل فهمتنى حقا ؟
- ربما لا أكون قد فهمتك حقا ولكنى أعرف أنى أحبك .

ضحكت ضحكة هازئة وقالت يحبنى ! .. ما أسهل الكلمة ! ..

كانت الآن تجلس مشدودة ، متصلبة تماما وهى تحيط ركبتيها بيديها ، وصعد الهم فى داخلى سريعا كمد البحر وهى تواصل بصوتها الخفيض الجارح دون أن تنظر الى : وها هو واحد آخر ! .. يتحدث عن الزهد ويتظاهر بالبراءة وهو يدبر كل شىء ليحطمنى ، أليس كذلك ؟ انتظرت طويلا لكى تتملكنى ، أليس كذلك ؟ دبرت أن تذلنى لكى ترضى غرورك ..

أمسكت يديها معا وقلت : ضحى ، لاشىء مما تقولين حقيقى وأنت تعرفين . أنا أحبك وأريد ان أتزوجك ..

سحبت يدها بسرعة وقالت ياللشرف ! من تكون لتتزوجنى ؟ من أنت ؟ .. أنت حتى لا تعرف أسماء الزهور .

قلت فى يأس وأنا أقوم : لا أعرف أسماءها ولكنى أحبها . لا أفهمك تماما ولكنى أحبك . فلننصرف من هنا على الاقل . لا معنى لهذا الحديث هنا .

انتفضت ضحى واقفة وقالت فى غضب وهى محتقنة الوجه :

- أنا أسالك من أنت وماذا تريد منى ؟ .. الم يكفكم كل الانتقام الذى حدث ؟ ماذا تريدون أكثر مما حدث ؟

ظللت فترة أقف أمامها دون أن أقول شيئا ثم استدرت وبدأت أهبط الدرجات وقبل أن أخرج التفت الى الوراء فرأيتها ما تزال واقفة هناك ، وحيدة فى أعلى تلك الدرجات المحطمة .

مشيت فى الشوارع بخطى سريعة . كنت غاضبا وكنت مهانا . اذن فهى تريد أن ننتهى الآن ؟ ولم لا ؟ مادام هذا ما تريده ؟ مادمت لا أعرف أسماء الزهور ؟ مادمت واحدا آخر ؟ .. قلت لها ما كان ينبغى أن أقوله ولكنها رفضتنى . عرضت أن اتزوجها فأهانتنى .

فأين خطئى ؟ .. تعال هنا . لا داعى للكذب . تريد أن تعرف الخطأ ؟ أى بذاءة فى أن تعرض الزواج على امرأة متزوجة بالفعل .. لا داعى للكذب .. هناك شىء حقيقى فى كل ما قالته . جزء خفى من نفسى كان ينتظر شيئا من تلك الرحلة . الم يلمح حاتم أيضا الى ذلك ؟ .. ربما لا أكون قد دبرت ولكننى تمنيت وانتهزت الفرصة . نعم « واحد آخر » كما قالت . واحد آخر بعد أبيها وبعد زوجها انتظر ليستغلها لنفسه . ومع ذلك فأنا اختلف ، أنا أحبها . ومع ذلك فأى عذاب سينتظرنى لو بقينا معا ؟ ومع ذلك فماذا سيحدث لى لو تركتنى وأنا أحبها كل هذا الحب ؟

مشيت طويلا فى الشمس دون أن أدرى حتى وصلت الى الفندق . ولما وصلت كنت مجهدا وكان العرق يغمرنى توجهت الى الحمام فى غرفتى ولكن قبل أن أغسل وجهى كان هناك طرق على الباب .

وقفت ضحى أمام الباب المفتوح لا تتحرك ووقفت أنا أيضا دون أن أنتبه الى دعوتها للدخول من الممر ..

قالت وهى ترفع الى عينيها الواسعتين هل أغضبتك حقا ؟ .

ـ نعم .

ـ كثيرا جدا ؟

ـ نعم .

تقدمت منى حتى أوشكت أن تلامسنى وكان وجهها شديد الشحوب ثم قالت : اذن فما أقل حبك . ما الحل ان كنت لا تستطيع أن تحمينى من نفسى ؟

أخذتها فى داخلى واغلقت الباب .

كان فى الغرفة المغلقة النوافذ مقعدان متواجهان من الجلد . جلست ضحى على واحد وجلست على الآخر . كانت تحول وجهها وتثبت نظرتها على نقطة فى حائط الغرفة المعتمة قليلا وكنت أثبت نظرى عليها . وأخيرا قلت ماذا سيحدث لنا ؟

وتذكرت أنى سمعت ذلك من قبل .

سألت نفسي ما سر غرام ضحى بالاطلال ؟ أفهم أن يهوى الانسان الاثار ، أن يعيش الماضي ويحييه في داخله بقراءة النقوش والاحجار . أفهم حين يزور الانسان مدينة لم يرها من قبل أن يهتم برؤية آثارها القديمة كما يهتم بمعالمها الحديثة ولكن عشق ضحى للاثار كان شيئا آخر . لو طاوعتها لقضينا الايام كلها ننتقل بين المعابد الرومانية والمقابر العتيقة وأطلال المسارح . كانت تبدى مللا اذا طلبت منها أن تذهب الى السينما أو الى أحد المطاعم أو الكازينوهات . تختلق أعذارا وترضيني بحل وسط : أن نذهب الى الاماكن الاخرى التي تحبها ، الى الحدائق لكي تتامل الزهور وتنظر في صمت طويل الى الاشجار . كانت تقول ليست الزهرة لونا وعطرا وأن يكن اللون جميلا والعطر جميلا . ولكن أنظر الى كل زهرة واحدة تجد دنيا كاملة تستطيع أن تعيش معها دهرا لولا أنها ، يا للخسارة ، قصيرة العمر . لن تجد أبدا زهرتي قرنفل تتشابهان تماما الا ان قتلت أحديهما بنظرة عابرة ولم ترها . أنظر الى كل واحدة من سرب الوريقات الصغيرة في تلك الزهرة الواحدة ، تلك الوريقات البيضاء والحمراء والوردية ، والمزخرفة بلونين معا وبكثير من الدرجات في كل لون ، تلك الوريقات المنمنمة في حوافها بأنصاف الدوائر الدقيقة المتجاورة ، أنظر اليها وكل واحدة منها جناح فراشة يريد أن يرف برقة أمام عينيك ، يريدك أن تمنحه بحبك أنفاس الحياة ، أنظر الى كل تلك المملكة من الفراشات تتوجك في قلب الزهرة حين تحبها فتصبح أرق مما أنت وأجمل مما أنت وتشارك تلك الوريقات المجنحة الدقيقة في رحيق نشوته من خارج هذه الارض .

وكانت ضحى تقول : ليست الشجرة خضرة وظلا فقط وان تكن خضرتها واحة لعينيك وقلبك في صحراء هذه الدنيا . الشجرة تناديك أن تصعد معها الى أعلى ، لا بعينيك وحدهما ، ولكن لتكون أنت السر الذي يصعد في جوفها فتورق فوق أغصانها وتحلق أنت أجنحة خضراء للسماء ، نخلة أوسنديانة .

وكنت ياضحى تقولين لى ذلك فى انفعال كأنه الغضب ، فهل كان ذلك لانك تشعرين بنظرتى تتابعك مع الازهار والاشجار فى دهشة وحيرة ؟ ولكن صدقينى أنى كنت أحاول أن أحيا معك فى الزهر وفى الشجر . لم أكن قد تعلمت ذلك من قبل وكنت أحاول .

ولكن كيف كنت أستطيع أن ألهث وراءك من تلك الحياة الهشة الندية الى جفاف الحجارة والاطلال ؟ .. عرفت منك ربما منذ أسبوعنا الأول فى روما تاريخ كل أحجارها . عرفت قصص المسلات المصرية العديدة ، من أى المعابد أتت ، ومتى نقلوها الى روما ، ومن الذى نصبها . واطلال ملاعب الرومان ومعابدهم ، متى بنوها ، متى هدمت فى الزلزال أو الحريق وكيف رممت ، ماذا فعل المسيحيون الاوائل بالمعابد الرومانية وأين كانوا يتعبدون خفية تحت الارض وكيف رسموا صورة العذراء فوق صورة افروديت أو اثينا . ورغم أنى لم أكن أهتم بذلك من قبل فقد استطعت ان تعدينى بذلك السحر القديم .

ومتى بدأ ذلك ؟ ربما بعد شجارنا الاول ؟ قبله بقليل ؟ لا أذكر لكنه كان فى أيامنا الاولى على أية حال . يومها صحبتنى الى معبد متهدم لم يبق فيه سوى قلة من أنصاف العمد المرمرية وقواعد أعمدة كثيرة خالية من نصبها وتمتد صفوفا وسط حجارة بيضاء متشققة فى كثير من الاجزاء عن الارض الترابية بلونها البنى . وهل كان ذلك . معبدا لديونيسوس أم أننى أنا الذى أجعله الان فى ذهنى معبدا لاله العشق ؟ ربما . وكانت ضحى تصطحب كتبها . تترسم بالخرائط ، لا الاطلال القائمة بل الصروح التى زالت . تقول هنا كان ناووس الاله . ثم تشير بيدها الى نقطة فى الفراغ بين الاعمدة وهى مقطبة الجبين . تنقل بصرها بين رسوم فى كتبها وبين مساحات خالية وسط الاعمدة المبتورة والاحجار المهشمة المبعثرة لكى تتأكد من أنه هنا ، بالفعل ، كان الناووس . ثم توجه أصبعها وتقول وهناك تمثال الالة وغرفة الاسرار . تمشى فى خط مستقيم وتعد خطواتها ، وبعد أن تصل الى رقم معين تتجه الى اليمين ثم تهتف بانتصار : أنظر ! كنت متأكدة ! بالطبع كنت متأكدة أنه هنا . كيف يمكن ألا يكون هنا ؟ وتلوح بيدها لتبنى غرفة وهمية وهى تقول هنا بعد أن تخطو أنت أيها العابد من العراء بشمسه الفاضحة وتسير هناك وسط الاعمدة ، يكسر ظلها الشمس ويحيل توهجها المحرق نورا هادئا ، هنا تسير بقلب واجف على تلك الارض المقدسة حتى

تصل الى البهو المسقوف ، هذا البهو ، فتبدأ بالتدريج تلك العتمة التى لا يضيئها غير قلبك المؤمن وذبالات شموع بعيدة . ربما أنت تتوهمها تلك الشموع وهى ليست هناك وأنت تتجه الى الاله يجذبك النور الذى يشع من داخلك ، ولكن هاهو من أجلك ، فى قلب تلك الظلمة الكثيفة فى المعبد ، يشرق الهك ويتجلى . يتقبل منك قربانك من الزهور ومن النذور . يمد قبسه الى قلبك الخاشع المحب وفى ملتقى الاسرار ، هنا ، تتعمد أنت وتتبرأ . من هنا تخرج مرة أخرى . لا من حيث دخلت ، ولكن من تلك البوابة التى هناك . تخرج فتتهلل لك الشمس وتحف بك الانسام وتحيى لك الطبيعة الاعراس . هناك على البحيرة المقدسة « أتراها ؟ » تتلألأ فى المياه مشاعل خاطفة من نور الشمس ويسقط ذلك النور على أوراق الاشجار اللامعة فى تلك الغابة ليُفرش طريقك بزينة مذهبة من فوقك وتحت قدميك . ولكن انتظر . فها هو من وسط الغابة ، هناك ، يأتى الموكب . موكب الكاهنات والعابدات فى ثيابهن الشفافة البيضاء . يقترب منك . غناؤهن يترقرق من أجلك أنت . يهمس بالذات لك . وسوسة أجراسهن الصغيرة تهمس من أجلك أنت . تدعوك للنبيذ وتدعوك للحب وتدعوك للفرح . ترجع أنت أيها العابد الوفى وقد رمى فيه الاله بعضه فتصبح واحدا أنت والاشجار والجبال والماء وبالعشق تصبح أنت هو وأنت الكون وأنت المنتهى . هل ترى ؟

نعم ، كيف لا أرى يا ضحى ؟ .. ها هو الهيكل المهشم أمام عينى ينتصب . تتجمع الحجارة المبعثرة والاعمدة المبتورة والحوائط المتآكلة وأسرى مع صوتك فى ذلك الممر بين الاعمدة المرمرية والغناء يهمس آتيا من بعيد ، تخفق أجنحة وينتشر عطر .

كيف لا أرى ؟

وتقولين بصوت خفيض . وأنت فى حضنى ، هل رأيت يافاوست ؟ .. هذه الدنيا نغم لا عراك ، عشق لا تمرد ، فسلم . لاتفكر .

نعم يا ضحى . ها أنا أتنور بحبك وأنت فى داخلى ومعى ، ولكنك حين تبتعدين أخاف . فمن أنت ؟ من أنت ؟ أى الوجوه أنت ؟

هل أنت ذلك الوجه الذى عرفته ليلتها فى المعبد الرومانى ؟ وهل كان ذلك ديونيسوس الذى أحال ليلتها تلك الغرفة الرثة فى فندقنا الدعى الى مهد نطفو فيه فوق موجة من الحب تدعونا حوريات خفية الى أن نعشق لا نكف ؟ .. نغوص معا فى قلب الموجة فتحملنا وتهبط بنا ، تهبط مدومة ونحن فى وسطها ، تهبط الى قرار بعيد ، الى عتمة تسكنها تلك الحوريات التى لا تكل من الغناء ونحن نغوص ، نندفع اليها ، ولكن فجأة .. فجأة ، اذ نكاد نلمس ذلك القرار وأيدينا مشتبكة معا تقذفنا تلك الموجة الى قمتها . يرتجف القلب ويرتعد الجسد . ولكن الموجة تحملنا من جديد ، تهدهدنا فوق ظهرها ، تنثر علينا رذاذها الندى ، يحل صمت وتحل نعمة . وذلك قبل ان يبدأ من هناك ، من تحت هذا الهمس وهذا النداء من جديد .

هل أنت ضحى التى عرفتها بعدها فى تلك الليلة ايضا ؟ ضحى التى تقف بقميص النوم الابيض الخفيف امام المرآة ، حافية القدمين ، تعطينى ظهرها وأنا اجلس على المقعد الصغير ثم تلتفت الى بوجه باسم متورد وتسألنى : ألا تعرفنى ؟

فاقوم وأريد أن أحتضنك مرة أخرى لكنك تمدين ذراعيك معا ، تبعديننى عنك ووجهك يبتسم مايزال وعيناك تلمعان ، تضعين يدك حول وسطى وأنا بامتداد ذراعك وتمدين يديك الاخرى فوق رأسى وتكررين ذلك السؤال بنبرة مستغربة تكاد تكون عاتبة ألا تعرفنى ؟

فأقول ليتنى أعرفك بقدر ما أحبك .

وتقولين بالدهشة نفسها ولكن كيف ؟ كيف أنك حتى الان لا تعرفنى ؟

تسقطين ذراعيك الى جانبك وتقولين ببساطة ألست زوجتك وأمك وأختك ؟ هل حقا لا تعرفنى ؟

وتشيرين الى قامتك ، الى شعرك الاسود ونصف لمته فوق صدرك . تشيرين الى عينيك السوداوين المكحولتين بحاجبيك وأهدابك . تشيرين بهدوء كامل وأنت تنتصبين أمامى ، فتنتابنى حيرة وربما شىء من التوجس

أيضا وأنا ألاحظ ذلك الجد فى وجهك وفى صوتك ، وتدفعيننى برفق حتى أعود الى الجلوس على المقعد وتسحبين أنت المقعد الجلدى الاخر وتجلسين أمامى . ثم تتلفتين حولك فى غرفتك الصغيرة ولم يكن فيها شىء غير الدولاب العتيق ولوحة متواضعة على الحائط لشراع أبيض وسط موج عال أزرق ، تتلفتين كأنما تبحثين عن شىء وتلك اللمعة فى عينيك لا تزال ، وتقولين وأنت تهزين رأسك فى حزن :

لا الومك ان لم تعرفنى ، فليست لدى علامة .

وأحاول أن أضحك وأقول ولكنى أرى علامة فى جبينك .

فتمدين أصابعك الجميلة الطويلة الى هناك ، تتحسسين جبينك ، كأنما بالفعل صدقتنى ثم تقولين لا . ليس مفروضا ان تكون هنا . وترتعدين فجأة ، وتحتضنين ذراعيك العاريتين بيديك معا كأنما حل بك برد شديد فى تلك الغرفة الدافئة المغلقة فأقوم مذعورا أسألك : ضحى ، مابك ؟ هل أنت مريضة ، لكنك تتطلعين الى بوجه شاحب وتهزين رأسك لليمين واليسار وتقولين بصوت خافت لا . ولكنى فى هذه الليلة أشعر كما شعرت فى الليلة الاولى ..

تعال أجلس بجانبى ..

وتفسحين لى مكانا بجانبك واحتضنك كلك الى ليسعنا المقعد وأنا أسألك أية ليلة أولى ؟ فتقولين ورأسك فى كتفى الليلة الاولى التى عرفت فيها نفسى . لم أحك هذا لاحد قبلك ولا أعرف لم أحكيه لك . ربما ستخبرنى أنت بعد أن تسمع . كنت صغيرة جدا لما حدث ذلك . ربما فى السابعة من عمرى أو الثامنة ، أنام بالليل وحيدة فى غرفتى والى جوارى دمية أحبها . ولكننى فتحت عينى وأنا اعرف أن معى أحدا فى غرفتى . كانت ليلة حارة ونافذة الغرفة مفتوحة ولم أكن خائفة أبدا . ولما نظرت لم أر هناك من النافذة سوى تلك المساحة المستطيلة من السماء الليلية مشغولا بقليل من النجوم ثم فجاة سبح فى ذلك المستقبل الاسود قمر ، بدر كامل مستدير . وكان هو واضحا تماما وسط القمر . عرفت أنى لما فتحت عينى ترك غرفتى وتجلى لى قمرا حتى أعرفه ..

فهتفت وأنا أحاول أن أرفع رأسك لكى أرى وجهك من ؟ من الذى تجلى لك ياضحى ؟

لكنك أنت لم ترفعى رأسك ، ورفعت يدا تكاد تكون هامدة فوضعت

أصابعك على فمى وواصلت كأننى لم أتكلم وقلت فى تلك اللحظة دخلت أمى الغرفة وأضاءت النور . كان النعاس فى عينيها ولكنها نظرت الى بدهشة وأنا فى السرير وقالت متى اذن كنت تصنعين هذه الأصوات فى غرفتك ؟ قلت لها أنا لم أقم من سريرى فراحت تجول ببصرها فى الغرفة ثم قالت كنت متأكدة .. ولكن ربما فى غرفة أخرى . أردت أن اقول لها بل كان هنا وتطلعت من فراشى للقمر لكنه لم يكن هناك فقلت لها ياأمى أنا ايسيت ..

قمت منتفضا من المقعد . دفعتها عنى تقريبا حتى كادت تسقط وقلت ضحى لم هذه الليلة بالذات ؟ كنا سعيدين حقا فما معنى هذا الكلام ؟ من ايسيت ؟ لكنها كانت تجلس هناك ، يداها على مسندى المقعد ، فوقها نجفة صغيرة مستديرة بيضاء وعيناها يزداد سوادهما عمقا وسط وجهها البالغ الشحوب ، تنظر الى كأنها لا ترانى وانما ترى ورائى.، وابتسامة خفيفة على شفتيها وهى تقول ايسيت ، ايسيت التى يقولون عنها ايزيس.

ثم أشرت لى بيدك اشارة بسيطة وقلت اجلس . اجلس ولا تقاطعنى ، قلت لك لم أحك هذا لاحد قبلك ولا أعرف لماذا أحكيه الليلة لك أنت .

وكان فى صوتك الضعيف المتعب وقتها شىء آمر مع ذلك شىء ، لا يقبل الجدل فجلست قبالتك وأنت تحكين بصوت يقرب من الهمس لكنه واضح النبرة تماما فقلت لم تفهم أمى شيئا ولكنى لم أهتم . كانت أمى التى تقف هناك حقيقية والفراش الذى أنا عليه غير حقيقى وتلك الغرفة والاشياء فيها كلها غير حقيقية كنت أعرف أنى أيسيت وأن أوسير لما تجلى لى فى القمر وعد أن يصحبنى معه فى زورق الالهة لنعبر بحيرة السماء معا فأغمضت عينى ونمت وكنت سعيدة . فى تلك الليلة ، علمنى أوسير اسمه وعرفنى اسمى . كان عاتبا على لاننى لم أعرف الاسماء من قبل . مربيتى فى البيت ومدرساتى فى المدرسة كن يحكين لى كل شىء عن جوبيتير وعن افروديت لكن احدا لم ينطق أمامى أبدا ، لم أسمع قبلها أبدا حتى باسم ايزيس او أوزوريس . لكنى عرفت أيضا أن أوسير لا يريدنى أن أحكى الحقيقة الان لأحد فلم أفعل . بل لعلى نسيت مع الايام ما حدث وتوهمته حلما .

عشر سنوات مضت قبل أن أسافر لاول مرة بعد ذلك مع أبى الى الاقصر . كنت وقتها فى السنة الأخيرة من المدرسة . وصلنا الاقصر

بالطائرة قرب الظهر ونزلنا فى الفندق الكبير هناك بجوار المعبد . كنت متعبة فنمت . ولكن هل نمت حقا ؟ كنت أتقلب فى الفراش أغفو فتأتينى الاحلام وأصحو فتظل صور الاحلام عالقة فى غرفتى . رأيتنى وسط أحراش ومستنقعات ورأيت افعى تشق الماء وتنساب وسط الحشائش العالية وسمعت بكاء طفل ، هل لدغته الافعى ؟ وبكيت أنا ثم رأيتنى فى زورق يعبر السماء ورأيتنى حداة تحلق فى الفضاء ثم تهبط وسط نيل طويل يسبح فى خلاء . ومن فوقه يطفو زورق أو قطعة من خشب أو صندوق وفردت جناحى فوق ذلك الجسم الطافى على النيل فعدت انثى وانبطحت فوقه فاذا أنا بين أحضان أوسير الذى تجلى لى من قبل قمرا . قمت من الفراش يغمرنى العرق ورأيت وجهى فى المرآة غريبا . رأيتنى أجمل من أن أكون أنا . نزلت الى شرفة الفندق . كانت الموائد مصطفة ومعظم الجالسين عليها من الاجانب . جاء خادم يسألنى ماذا تشربين فأشرت بدهشة الى الجالسين فى الشرفة وقلت له ماذا يفعل هؤلاء الناس هنا ؟ وقمت من مكانى . كان المعبد هناك ، وعلى النيل ، وكنت أعرف أنه هناك دون أن أرفع رأسى فمشيت اليه . وجدت امام سوره العالى مسلة واحدة والاخرى ذهبت ، الباقية أيضا لم تكن قمتها مكسوة فضة ولا ذهبا ، مثلما كان من قبل . لم تكن تلألأ بنور « رع » المقدس وقال لى شخص على الباب انتهى موعد الزيارة . فسألته وماذا يفعل هؤلاء هناك ؟ لم يفهمنى وقال هذا هو الفوج الأخير من الزوار . قلت له لن أبقى طويلا . أريد فقط أن أطل على المعبد الصغير خلف البوابة . رأيت المعبد وكان اطلالا . كان خشب مصلوب يسند طوبا متداعيا وتراب كثير ورمل فى كل مكان . وفى الارض أذرع مبتورة ورءوس مطمورة تبرز من وسط التراب . ملأنى الغضب وقلت له ماذا فعلتم بالمعبد ؟ صرخت ماذا فعلتم بالمعبد ؟ ألا تعرف أن الالهة فى هذه البقعة المقدسة تجلت ؟ انه من أجل ذلك كان معبدها هنا ؟ وكنت أجر الرجل تقريبا وقلت له هنا كانت الحديقة . هنا أحواض اللوتس وبجواره الورد وهناك السوس والزنبق . هنا كانت أشجار النخيل والتوت والسنط . هنا شجيرات المسك وفى وسطها البحيرة المقدسة يسبح فوقها أوز أبيض وبط كثير ملون . فأين ذهبت البحيرة ؟ .. هنا كان سلم من مرمر ومن خلفه بهو من أعمدة الجرانيت الوردية . تيجانها زهرات لوتس مكسوة بالذهب وقواعدها منقوشة بالرسوم .

هنا كان الهيكل والناووس . تمثال أوسير وتمثال حور . لم أقل له هنا زوجي وهناك ولدى . قلت هنا أوسير بيده صولجان من ذهب .. وحور هناك . عيناه ياقوتتان تبرقان وسط حجره الاسود اللامع . وهناك ، قبل سلم قدس الأقداس كانت مقصورة للبخور والعطور .. كانت ثياب الكهنة البيضاء ، أعواد العازفات والنايات فأين ذهب ذلك كله ؟ . كان الموظف يتابعنى لاينطق حرفا وأنا أدور به وسط أكوام الحجارة التى جمعوها ليقيموا الهيكل المحطم ولكنه أخيرا قال وهو يشير بأصبعه إلى مكان ما هناك تمثال لايزيس مازال قائما . فقلت وأنا أكاد أصرخ أعرف .. أعرف ولكن تعال أنظر أنت بنفسك . هذه ليست ايسيت . هذه أيزيس . هذه فتاة من روما تلبس ثوبا من روما . هذه ايزيس صنعها أولئك الأجانب . فانظر بنفسك . ايسيت كانت تلبس ثوبا شفافا . أحياناً تلبس ثوبا من ريش لاهذا الثوب الحريمى المموج . ايسيت ليس فيها هذا الامتلاء هنا ولا تلك الحلاوة الفجة فى وجهها . ايسيت أجمل من ذلك بكثير . أعمق من ذلك بكثير . لم يكن هناك داع حتى لهذه السنبلة التى جعلها أولئك الأجانب تمسكها فى يدها . أبناؤها عرفوا كيف ينيرون وجهها بالخصب الذى فى داخلها دون أن يضعوا زرعا فى يدها . لم يكن هناك داع لهذه السنبلة .

وقال لى ذلك الرجل فى الأقصر لكن أنت .. كيف عرفت ؟ فتركته . اختفى . واختفى معه الزوار وبقية البشر وتلك الاحجار والأخشاب . كنت أقف هناك ، وحدى . كنت وحدى فى قلب الأشياء أشهد بداية الأشياء . فى الأول كنت فى الظلام ولم يكن غير الظلمة والصمت شيء ، ثم تجمع وسط الظلام ماء واشتاقت الظلمة للنور فأشرقت شمس رع . ولما كان النور تلألأ الماء وطفت من ألقه جزر صغيرة وكان يعتلى كل جزيرة اله . وكنت أنا هنا فى ذلك المكان وكان أوسير هناك وكان بيننا ماء . لكن أوسير مد لى يده فمددت له يدى والتقت فى ذلك السديم جزيرتانا معا وتعانقنا وبالحب صرنا واحدا . ثم مد الالهة أذرعهم فانبسطت تحت أقدامهم الجزر وتلاقت وكان وسط الماء أرض . ومن أنفاس الالهة تخلق البشر ليعمروا الأرض . ولما ظهر الناس على الأرض صعد موكب الالهة للسماء وسط شعاع ونغم . لكن الالهة تركوا البشر عماء وجهلاء وعندما رأى أوسير البشر يهيمون سائمة على الأرض أخذنى من يدى ونزلنا اليهم . علمهم أوسير كيف يبنون بيوتا يأوون إليها وألهمتهم أنا كيف يشقون بطن الأرض اليباب فتخضر . ثم

حلت بالناس النعمة ففرحوا بى وبأوسير ملكين على الدنيا نحكمها إلى أبد الابدين . ولكن أخى ست جاء ليكسر الدورة . نزل ليعيد الخراب والظلمة . ولما فتك ست بأوسير حاربت وحاربت . ولما جمعت أشلاءه رفرف الصقر فى احشائى ثم خرج وحلقت فى الدنيا معه لنرد لها النور والعدل . وعرف الناس إنى هنا فى أرضهم تجليت أول مرة فبنوا لى فى هذا المكان هيكلى . وعندما عرفت الحقيقة كلها تلفت حولى . لم أجد غير الاطلال والخراب فبكيت . خرجت من المعبد ومشيت طويلا على شاطىء النيل ، نيلى ، وجلست هناك إلى جذع النخلة ، نخلتى ، وبكيت . كانت الشمس تغيب كان أبى رع ذاهبا إلى رحلته المسائية فى مركبه الأحمر فتجلى لى أوسير مرة أخرى فى مركب الغروب وباح لى بسر ما كان وما سوف يكون . وقال لى سيشق الرعد بطن السماء لكى يهطل المطر وستتفتت البذرة لكى تنبت الزهرة .

تعال .

قالت ايسيت تعال .

قال ضحى تعال .

مدت ذراعيها معا إلى ووجهها الجميل يشرق وقالت تعال .

فذهبت وركعت أمامها ، كانت تميل على وتحضننى وأنا أدفن رأسى فى صدرها الناعم المبتل بعرق خفيف وعطر . مسحت بيدها على شعرى وقبلت رأسى طويلا ثم قالت بصوت خافت :

- لاتبتئس . سأجمع أشلاءك من جديد وستكتمل .

فقلت هامسا دون أن أتحرك من مكانى لا ياايسيت . لست أوسير ولكن أشلائى فى صدرى .

فرفعت هى رأسى قليلا وكررت فى يقين سأجمع أشلاءك من جديد وستكتمل .

ثم قالت بعد سكون ، لكن لاتتعجل ولاتسأل عن طرق الالهة ..

نهضت وأنا أرفعها من ذراعيها معا . كانت خفيفة كأنما سقط عنها وزن الجسد .

وكنا نتعانق وكنا فوق جزيرة .

كان الموج يغلى فى السديم ، وضرب صقر بجناحيه .

أيام طويلة قضيتها أفكر فيما قالته ضحى . لاأومن بالتناسخ أو التقمص أو أيا كان ذلك الشىء الذى يسمى به حلمها . ولكنى كنت أعرف ، كنت متيقنا أنها لاتكذب . فحين كانت تجلس هناك . فى تلك الغرفة الضيقة المغلقة كانت تشعر بالفعل أنها ايزيس أو ايسيت وبأن أوسير تجلى لها فى القمر وباح لها بسر لاأعرفه . ولماذا لا أعترف ؟ فى ذلك الليل أيضاً سقطت مع كلماتها جدران تلك الغرفة فى الفندق ورأيتنى وسط أعمدة تيجانها من اللوتس ومسلات مكسوة بالذهب ونخيل وزهر وكنت شعاعا من الشمس وموجة فى البحر دخلت أيضاً قلب الأشياء وشهدت بدءها . لماذا لاأعترف ؟

ومع ذلك فقد منعتنى ضحى بعد تلك الليلة أن أحدثها عما قالته ليلتها أو أن أشير إليه بكلمة واحدة . وحين قلت لها فى الصباح التالى ونحن فى طريقنا للافطار صباح الخير ياايسيت ، أجفلت . تضرعت إلى بوجه شاحب ألا أذكر أبدا ، أبدا هذا الشىء ، وكررت كلماتها لا أعرف لماذا حكيت لك ذلك كله . كأنى كنت ألبى أمرا بأن أتكلم فلا تحدثنى عن شىء . يوما ماسنعرف أنا وأنت .

ويومها ، فى المساء كنا نجلس فى الحديقة الصغيرة التى تفصل بين فندقنا والمعهد ونحن فى طريقنا للفندق . كان النهار قد بدأ يقصر وظهرت غيوم رمادية فى السماء وبدأت لذعة خفيفة من البرد . ولكن ضحى ارادت أن تجلس قليلا على تلك المقعد الحجرى وسط الحديقة فجلست إلى جوارها . حولناكانت أشجار بدأت أوراقها الخضراء تشحب وتصفر ، وفيم بين الأشجار أحواض الزهور وقد سويت وخططت وألقى فى طينها الداكن بذر جديد . كنا مكدودين بعد تلك الليلة وبعد نهار طويل راح المحاضر فيه يتحدث عن العلاقة بين ميكيافيلى وعلم الادارة . قال أن الناس لم تفهم ميكيافيللى حين قال أن الغاية تبرر الوسيلة ، فهو لم يكن يخترع قاعدة للحكم ولكنه كان يشرح القواعد التى يطبقها الحكام مهما تكن أفكارهم ونواياهم . وقال لنا أن رئيس أية مؤسسة مثله مثل الحاكم ، يريد أن

يضمن لدولته الصغيرة الاستقرار والنجاح وأية وسيلة تصل به إلى هذه الغاية فهى مبررة . وبدأ يتكلم عن سياسة المدير فى نقل الاوامر عن طريق من اسماهم قائدى المجموعات وشرح أنهم ليسوا بالضرورة مديرى الادارات ولكنهم الأقوى نفوذا بين العاملين . وضرب مثلا ، فلو كان اضراب سيحدث فى مؤسسة ويعطل نجاحها فإن المديرين لن يعلموا به بطبيعة الحال ولكن قائدى المجموعات سيعلمون ويبلغون به الرئيس قبل وقوعه . ولهذا فيجب أن يكونوا دائما تحت سيطرته ويجب أن يكافئهم دائما ليستمر ولاؤهم له .

وكان هذه الكلام يشبه كل كلام آخر سمعناه فى تلك الدورة ولكنه كان أصرح منه وأكثر وضوحا .

وسألت ضحى ونحن فى تلك الحديقة ما رأيك فيما قاله ذلك المحاضر اليوم ؟ فالتفتت إلي بدهشة وقالت من ؟ ثم ضحكت بصوت خافت وقالت أتظن أننى أهتم لحظة بما يقولونه هناك ؟ .. أنسى كل شىء فى اللحظة التى أترك فيها المعهد .

فقلت أنا آسف إذن ، لاتهتمى .

سألت بفضول ولكن ماذا قال ؟

فقلت بلهجة عابرة وضحكة فاترة كان يقول أن الانسان شرير بطبعه ويجب معاملته فى كل الأحوال على أنه شرير يشترى بالمال ويخضع بالخوف ...

سكتت ضحى قليلا وبدأ أنها تفكر ثم قالت احياناً يخرج الخير من الشر ...

- هذا بالضبط ما كان يقوله المحاضر ولكن لا كما تقصدين أنت .
- وكيف بحذر أعرف على الأقل أنك لاتقصدين الشر الذى يعنيه هو .
- وكيف تعرف ماأقصده ؟
- قلت بحذر أعرف على الأقل أنك لا تقصدين الشر الذى يعنيه هو .

قالت ضحى وماذا تقصد أنت بالشر ؟

- لم افكر فى هذا قبل الآن . ولكن أظن أننى طول عمرى أكره القهر . قهر الانسان بالفقر وقهره بالخوف ، وأهم من ذلك قهره بالجهل أن يعيش الانسان ويموت دون أن يعرف أن فى الدنيا علما فاته وجمالا فاته وحياة لم يعشها أبدا ...

ـ فإن كانت لديك أفكار فلماذا لاتحاول أن تحققها ؟ لماذا لاتحاول مثل صديقك حاتم مثلا أن تعمل بالسياسة لتحارب من أجل الافكار التى فى رأسك ؟

أطرقت قليلا وقلت هل تريدين حقا أن تعرفى لماذا ؟

فقالت ضحى أن شئت .

ـ اذن سأقول لك الحقيقة ياضحى . الحقيقة التى لم أقلها لحاتم أو لاحد ، أنت بالطبع ذكرتنى أنا وحاتم معا دون قصد ولكن الحقيقة أنه بصورة ما قد صنع حياتى ، كنا أنا وهو زميلين فى المدرسة الثانوية وكنا نشطين جدا فى المظاهرات ، نكره كل ظلم : الانجليز الذين يحتلون البلد ، والملك الذى يبيع البلد للانجليز والباشوات الذين يقتسمون البلد مع الملك ومع الانجليز ، الذين يقضون نصف الوقت فى أوربا والوطن محتل والناس جياع . ربما لم يكن مفروضا أن أقول لك هذا ولكنك تطلبين الحقيقة . ولما جاءت الثورة فرحنا . قلنا تحققت كل الاحلام . سيخرج الانجليز . سيتحقق العدل فلا يعيش ناس فى بيوت كالحجور تملؤها القذارة ويملؤها المرض . سيتعلم الناس فلا يصير جهل . ستنمو مدائن وحدائق وسيمشى الانسان عزيزا على الأرض . لايمسح الأطفال احذية الآخرين ولاتتسول النساء فى الطريق .

ولكننا رأينا ملوكا جددا وباشوات جددا يريدون أن يستولوا على البلد التى كنا مستعدين أن نفقد أنا وحاتم حياتنا من أجلها .

وذات يوم فى أوائل الثورة كنا أنا وهو فى الجامعة نعد للدراسات العليا . لم أقل لك من قبل أننى حاولت بالفعل أن أعد هذه الدراسات ثم توقفت .. واجتمعنا أنا وحاتم مع بعض اصدقائنا القدامى وقررنا أن نقوم بمظاهرة كما كنا نفعل قبل الثورة لكى نطلب الحرية . وخرجت المظاهرة من الجامعة . كان حاتم هناك محمولا على الاعناق يردد الهتافات التى كنا نرددها أيام الثانوية والجامعة . دماؤنا فداؤك يامصر . لااستعمار ولاطغيان . وأضفنا أشياء جديدة . يسقط حكم البكباشية وهتافات من هذا النوع . كنا يومها بضع آلاف أو بضع مئات ، ننوى أن نذهب فى بساطة إلى مجلس قيادة الثورة القريب من الجامعة لنهتف بمطالبنا كما كنا نفعل أيام الباشوات والملك والانجليز . وفى تلك الأيام ، قبل الثورة ، كانوا أحيانا يضربوننا بالرصاص وفى أحدى المرات طار جزء من حاجب حاتم

ولكننا كنا نفخر بذلك . أما فى هذا اليوم فبعد أن خرجنا من الجامعة وعبرنا الكوبرى الصغير ، وما أن دخلنا الجزيرة ، وقبل أن نصل الى مجلس قيادة الثورة بكثير ، حتى جاءت عربات مدرعة يستقلها جنود الجيش لصد الغزاة

ووراءها عربات من اللورى وهبط منها بعض الجنود يحملون عصيا وهجموا علينا . جرى بعض الطلبة وعبروا الكوبرى عائدين الى الجزيرة ، ولكن حاتم تشنج هتافه كلما اقترب الجنود واقتربت العصى ، وكنت يومها معه ضمن من أخذوهم فى العربات . كنت أجلس الى جوار حاتم فى اللورى وهمس فى أذنى مهما يحدث فلا تقل لهم اننا موظفان ، يمكن يفصلونا من وظائفنا . وأخذونا يومها لواحد من معسكرات الجيش وبدأت العصى والاحذية السوداء الغليظة تنهال على الاجساد . أخذونا واحدا واحدا : من الذى نظم المظاهرة ؟ أى حزب حرضكم على التظاهر ؟ من قادتكم ؟ وكان الطلبة المطروحون على الارض يئنون وتطفر الدماء من جباههم مع الضرب لكن أحدا لم يتكلم وكنت أنا واقفا أراقب ذلك ، انتظر دورى والعرق الغزير يغمر وجهى ويدى ترتجف ، وجسمى كله يرتعش . لماذا لم أكن أخاف من الرصاص وكنت ارتجف رعبا وأنا أرى هذه الاحزمة الصفراء والاحذية السوداء مشرعة فى الهواء ؟ .. لماذا كان يشغلنى خاطر صغير فى تلك اللحظة ، أن يعرفوا أنى موظف فأفصل من عملى وتجوع سعاد وتجوع سميرة وأتشرد أنا ؟ لماذا فعلت ذلك الشىء الذى لم أغفره لنفسى أبدا ؟ أهو الرعب فقط ؟ .. هل ظننت أن هذا سينقذنى من الضرب ؟ .. كان الى جوارى ضابط صغير صامت يتولى حراستنا ويسلمنا بالترتيب لقائده الذى يشرف على الضرب حين يطلب منه قائده ذلك . فأخذت ذلك الضابط إلى جنب وهمست فى أذنه سأعترف لك . الذين نظموا المظاهرة هم هذا .. وهذا .. وهذا ومن بين من اشرت اليهم حاتم . فهمس الضابط فى أذنى ولماذا تخون أصدقاءك ؟ لماذا لا تصمت كالاخرين ؟ اذا ثبت قليلا سيطلقون سراحك .. وحين بدأوا ضربى ؟ بعد ذلك لم أنطق ولم أعترف ، ولكنى لم أغفر لنفسى هذه اللحظة أبدا . لم يعرف حاتم حتى الآن شيئا مما حدث ولكننى عرفت أننى لست كبيرا بما فيه الكفاية لاهتم بالسياسة . لماذا لا أعترف ؟ حين جاءنى حاتم بعد ذلك وكان الجلاء قد تم وقال لى أنه سينضم لهيئة التحرير ليحاول أن يحقق مع الثورة ما عجزنا عن أن نحققه خارجها رفضت . رأيت بعض أحلامنا تتحقق . رأيت الانجليز يخرجون

ومدارس تبنى ومصانع تقام فى كل مكان ، ولكننى قلت لاشأن لى بذلك . لست كبيرا بما فيه الكفاية ..

وعند ذلك سكت ، كنت أشعر بالبرد شديدا وأنا أجلس على ذلك المقعد الحجرى فى الحديقة إلى جانب ضحى ، لكننى لم أطلب منها أن نقوم . كنت هامدا ، وكانت ضحى أيضاً صامتة .

بعد فترة قالت ضحى أنا أصدقك . حين تخون واحدا فأنت تخون العالم كله .. قلت لها بدهشة : ماذا تقصدين ؟

ـ أقصد أنك عندما خنت صديقك فقد خنت أيضاً أحلامك وأفكارك ، لم يعد ممكنا أن تعود نفس الشخص ..

ثم قالت بهدوء : كلانا خائن .

قلت فى ضيق ـ أرجوك لاتقولى هذا . نعم ، نحن خائنان ولكن التكفير ممكن . قلت لك مرات كثيرة أنى أريد أن أتزوجك أليس كذلك ؟ لامعنى لأن تبقى مع شخص لاتحبينه .. التكفير ممكن ..

لكن ضحى قالت فى همس كأنها تكلم نفسها لماذا كان يجب أن نلتقى ؟ لماذا كان يجب أن نعمل فى مكتب واحد ؟ لماذا كان يجب أن أحبك ؟ لماذا كان يجب أن نأتى إلى روما معا ؟ فى البدء لم أهتم بك . كنت أراك بصمتك ونظراتك الحائرة وأعصابك المتوترة ومحاولاتك أن تبهرنى بقراءاتك ومعلوماتك فأقول لنفسى هذا واحد مثل الآخرين . لكن ربما حتى فى ذلك الوقت كنت أحبك . يفاجئنى وجهك وأنا أمشط شعرى فى المرآة أو وأنا أقرأ فى كتاب . وغضبت من نفسى . لم أعرف من الرجال غير زوجى . طرأ على ذهنى فى لحظات غضب أن أخونه لأنه كان يخوننى طوال الوقت . ولكن ذلك كان غضبا فقط . كنت أعرف فى قرارة نفسى أنى لن أفعل ذلك ، ليس من أجله هو ولكن من أجل نفسى . لا لأننى أحترمه ولكن لأننى أحترم نفسى . ولكن حتى فى الليالى القليلة التى كان زوجى يبقى فيها فى البيت كنت أراك معه وأراك بدلا منه . وكان يملؤنى عار كأننى بالفعل خنته ، وكان يملؤنى غضب . غضب هائل فى النفس .

رحت أكرر : التكفير ممكن ياضحى . أنا لم اتعمد أن أحبك . أنا احببتك هذا كل ما فى الأمر ..

فقالت وهى تقبض على يدى : من يدرى ؟ .. من يدرى لم التقينا وماذا سيتولد من هذا الغضب ؟

قلت لم تتحدثين عن الغضب ياضحى ؟ ألم تكونى أنت التى قلت أن هذه الدنيا نغم لا عراك ؟

قالت ضحى فى هدوء : تلك هى الدنيا التى أحلم بها .

ساد صمت ، وكانت شمس برتقالية متجمدة تحت سحب داكنة ، ثم هبت ريح خفيفة جمعت أوراق الأشجار الصفراء الساقطة على الأرض فى مجرى واحد مستطيل راح يندفع سريعا ويصنع فى نهاية الممر دوامة تصعد لاعلى ثم ترجع للأرض .

- ١١ -

رجل عار وامرأة عارية . الرجل ممشوق القوام ، اشقر الشعر ، وسيم ، وفى يده سوط ، الفتاة صغيرة وجميلة ، شعرها ذهبى طويل ينسدل على ظهرها العارى . الرجل يدور حول الفتاة فتحاول أن تهرب بحركات كالرقص وهو يحاصرها بالسوط . تركع أمامه ، تتلوى تحت قدميه وهى تتشبث ضارعة بساقه المتناسقة العضلات . ثم فجاة يضىء المسرح نور أحمر وتدخل فتاة عارية اخرى ، شعرها اسود طويل وبيدها سيف . تشهر السيف فى وجه الرجل فيرمى السوط الذى بيده ويقفز مذعورا إلى الخلف ثم يختفى . ترمى الفتاة سيفها وتنحنى إلى الأرض ، ثم تحتضن الفتاة الملقاه على الأرض وترفعها . تتعانقان عناقا طويلا وبطيئا وكل منهما تتحسس الأخرى بينما يسدل الستار بالتدريج ويرتفع تصفيق بطىء ومهذب .

وعندما أضىء النور الخافت فى الصالة تطلعت إلى باولا مندهشا فقالت لماذا تبتسم هكذا ؟.

قلت معذرة ولكن ألا ترين أن الجمهور هنا مهذب جدا وما يشاهده .. فقاطعتنى باولا قائلة بشىء من الاعتزاز هذا هو ارقى ملهى ليلى فى روما .

نظرت حولى . كان الرجال يلبسون سترات داكنة وقمصانا ناصعة البياض ، ياقاتها عالية وصلبة ، وشعورهم مصففة بعناية ، بينما كانت النساء يلبسن الثياب الليلية العارية الكتفين والاكمام وتفوح فى المكان روائح عطور نفاذة مختلطة . وكان الجمهور يتحلق حول موائد عليها مفارش بيضاء وتعلوها الجرادل الصغيرة التى تضم زجاجات الشمبانيا الملفوفة فى الفوط . وكنا أنا وباولا من القلائل الذين يشربون نبيذا ، وراحت اضواء حمراء وصفراء تضرب الصالة المعتمة من كشافات دوارة فى السقف .

تطلعت إلى باولا بعينيها البنيتين الباسمتين وقالت لاحظت أنك وضحى تتكلمان كثيرا عن النافورات والمعابد والتماثيل . اردت أن تعرفا أن روما ليست متحفا وأن الناس هنا أيضاً تعيش . لماذا لم تأت ضحى ؟

قلت كانت تود أن تأتى ولكن أظن أنها مرهقة قليلا ..
قالت باولا بلا اقتناع وهى تهز رأسها : حقا ؟ .
ثم رفعت كأس النبيذ إلى شفتيها وراحت تجيل بصرها فى المكان . كانت تركز على النساء بصفة خاصة . تهمس إلى : هذه فلانه وهذه زوجة فلان ولكنها عشيقة الآخر الذى ترقص معه . أردت أن أقول لها أنا لا أعرف هذه الأسماء ولكنها كانت تتكلم ببساطة بإعتبار أن هذه الشخصيات لابد أن تكون معروفة فى الدنيا كلها . تابعتها بابتسامة وكان ما يشغلنى هو : هل ستكفى النقود التى معى لاسدد الحساب فى أرقى ملهى فى روما أم لا ؟

فى الاسابيع التى مضت منذ وصلنا إلى روما كانت باولا تظهر دائما بين المحاضرات وتتبادل حديثا قصيرا مع كل واحد من الدارسين ، أما ضحى التى كانت واحدة من فتيات قليلات فى الدورة فقد نشأت بينها وبين باولا علاقة غريبة . أحيانا كانت ضحى تتطلع إليها بنظرتها الصامتة المتبلدة عندما تحكى نكاتها ومداعباتها فترتبك باولا قليلا وتنهى حديثها بسرعة . وفى احيان أخرى تتبادلان همسا طويلا بالايطالية التى لاأعرفها . كان بينهما اسرارا عميقة ، فإن سألت ضحى عن ذلك تجيبنى باقتضاب : أستشيرها فى المشتريات . وفى ذلك اليوم لما الحت باولا على دعوتنا إلى « سهرة » قبلت ضحى . بل انصرفت من المعهد مع باولا دون أن أراهما ، ولكنها فى المساء اتصلت بى فى غرفتى وقالت بصوت مجهد أنا متعبة فاذهب وحدك . قلت سأبقى معك مادمت متعبة ، فقالت بصوت نافد الصبر يجب أن تذهب ، وعدنا باولا أن نذهب وحجزت لنا مكانا فليذهب واحد على الأقل ، فقلت منفعلا أنا أيضاً ماقصدك من هذه الحكاية ياضحى ؟ هل توفقين بينى وبين باولا ؟ ليكن .. سأذهب . ثم رميت السماعة فى عنف . كنت قد اعتدت عصبية ضحى وتهربها منى فى الأيام الأخيرة لكنى لسبب ما لم أحتمل الحاحها على أن أخرج مع باولا ، لسبب ما شعرت أنها تريد أن تتخلص منى .. وفى الملهى بدأت الموسيقى خافتة ثم علا صوت الطبول والصنوج قالت باولا : هل تحب أن ترقص ؟

فقلت وأنا أضحك أحب جدا ولكنى لا أعرف الرقص .
- كثيرون فى مصر مثلك لايرقصون ؟
- نعم ، أظن ذلك . قليلون هم الذين يرقصون .
- وضحى ، هل ترقص ؟

- ربما . لا أعرف . لم أسألها .

- استغرب جدا لو كانت لا ترقص . لها جسد خلق للرقص . رشيق مثل الراقصات فى الصور التى نراها فى معابدكم القديمة . أنت محظوظ . أنتبهت إلى عبارتها . سألتها بلهجة عادية ولماذا أنا محظوظ ؟ فقالت باولا ببراءة مبالغ فيها : لانك ترى ضحى طول الوقت .. ثم ضحكت باولا وقالت اعرف على الأقل خمسة فى المعهد واقعين فى غرامها بلا أمل .

انقبض قلبى من هؤلاء المحبين الذين لا أعرفهم وقلت لباولا من هم هؤلاء الخمسة ؟

فأغرقت باولا فى الضحك ولزمت أنا الصمت . أخذت هى أيضاً تشرب فى صمت . ولما انتهى الرقص اطفئت الأنوار الصفراء والحمراء وبدأت على المسرح الصغير فقرة جديدة : فتاة تدخل غرفة نوم وهى تلبس ثياب نوم شفافة . تقف أمام مرآة كبيرة وتخلع تلك الثياب ببطء على انغام موسيقية متموجة ومتقطعة ، وكلما خلعت قطعة دقت عاليا احدى الطبول ، وحين انتهت كل القطع استدارت نحونا وراحت هى أيضاً ، تتحسس كل جزء من جسمها . ولكن كان هناك تجديد ، فبعد أن اطمأنت إلى كل جزء راحت تعانق شخصا وهميا وتأتى بحركات وأصوات مع الموسيقى ، قبل أن ترتمى أخيرا على الفراش . وفى هذه المرة كان التصفيق أعلى قليلا وكانت هناك بعض صيحات متفرقة وضحكات .

ولما انتهى ذلك وراح النور الاصفر والأحمر يدور فى الصالة كنت أرى الموائد أيضاً غير ثابتة وبدأ رأسى يدور قليلا . كانت باولا تلبس ثوبا قرمزيا وقد رفعت شعرها الأصفر الناعم فى هالة فوق رأسها فكشفت كل عنقها الأبيض الجميل وقلت لها أنت جميلة ياباولا فابتسمت وتظاهرت أنها تصفق وهى تقول برافو . السنيور بدأ يفيق ويتكلم . لابد من زجاجة أخرى . قلت لنفسى أنا بدأت اسكر ويجب ألا أشرب بالفعل الزجاجة الأخرى .

قالت باولا مشيرة برأسها حولها وكان كلامها أيضاً يخرج بطيئا بعض الشىء أى واحدة تعجبك أكثر . هنا أجمل بنات روما فقلت وأنا أضحك : أنت وقالت باولا بطريقة عابرة بالطبع أنا أجمل واحدة فى الدنيا ، أقصد أى واحدة غيرى تعجبك ؟ قلت كلهن . فضحكت وهى تقول هذا شرقى جدا . سألتها وماذا تعرفين عن الشرق ؟ قالت الكثير ، يأتى شرقيون

كثيرون إلى دوراتنا ، وكل واحد منهم يعتقد أن الايطاليات لم يكن ينتظرن غيره . الواقع ياصديقى أن هذا صحيح فقط بالنسبة لبنات فيافينتو وغيره من الارصفة .ثم ضحكت وهى تقول ولكن عكس ذلك حقيقى .. أقصد أن الرجال الايطاليين يحبون الشرقيات جدا . بين من يحبون ضحى مثلا ..
قلت بشىء من العصبية كفى كلاما عن ضحى .

فقالت باولا : اذن لنتكلم عنك انت لنقل أنك لست شرقيا جدا . ثم وضعت يدها على يدى، وقالت ولنقل أنى أحبك ثم رفعت يدها أمام وجهى كأنها تحذرنى وقالت اقصد انك تعجبنى . ثم شوحت بيدها كما تفعل الايطاليات وقالت يعنى .. مسألة العواطف هذه .. معذرة ياسنيور .. ولكن مسألة العواطف انتهت من زمن . يعنى انا اسفة جدا .

قلت ولكنى لم أتكلم عن أى عواطف .

فقالت وهى تنزل كأسها عن شفتيها دون أن تنظر الى : بالضبط . ولهذا قلت انك تعجبنى . أنت كما لاحظت شخص عاقل جدا وتختلف عن كثيرين قابلتهم ، ولهذا أتساءل هل يعجبك الان مايحدث فى مصر ؟

وضعت الكأس وتركز كل ما ابقاه النبيذ من انتباهى وقلت أى شىء تقصدين ؟ ما الذى يحدث فى مصر ؟

فقالت وهى مستمرة فى التلويح بيدها كأنها تتحدث عن أشياء عابرة أقصد أخذ أموال الناس .. طرد الاوروبيين واليهود .. الحرب مع اسرائيل . هذه الاشياء يعنى .

سكت قليلا ، كانت كل كلمة تقولها تزيد من انتباهى ، وفى النهاية لم يبق من النبيذ غير ثقل اللسان .

قلت لنتكلم يا باولا عن واحدة . يبدو انك تسمعين أشياء ولكنك لاتعرفين الكثير . مايحدث على ما أظن ليس اسمه أخذ أموال الناس . عندكم تسمونه توزيع الثروة بالعدل وتفعلون هذا بالضرائب أليس كذلك ؟

قالت محتجة ولكن الضرائب ، هذا شىء اخر ياسنيور ..

ـ لماذا ؟

ـ يعنى ، يختلف . ولكن دع هذا .. اسرائيل لماذا تحاربونها ؟

ضحكت وأنا اقول متى حاربناها ؟ أن كنت لاتعرفين فهى التى حاربتنا ومعها انجلترا وفرنسا أيضا ان كنت لاتعرفين ..

قالت ولكن الا ترى السبب ؟ هذا لأنكم تريدون أن ترموهم فى البحر . لماذا تكرهون اليهود ؟ الا يكفى ماجرى لهم فى الحرب ؟

قلت بشىء من البطء انت يهودية ؟

فجذبت السلسلة حول رقبتها وأخرجت من صدرها صليبا ذهبيا كبيرا كان يختفى تحت فتحة صدرها الواسعة وقالت وهى تضحك أنا كاثوليكية جدا . يوم الاحد سأعترف للقس بكل مادار بيننا .

قلت فلماذا تقولين ذلك ؟ كيف تعرفين أننا نكرههم ؟ عندما كنتم أنتم هنا فى اوروبا تذبحون اليهود كانوا عندنا مواطنين عاديين .. لا ، بل الواقع اكثر من عاديين . كانوا يملكون ثروات هائلة ومنهم باشوات ووزراء ولكن لما صنعوا اسرائيل رحل هؤلاء المواطنون الصالحون الى هناك وأخذوا معهم ذهبا كثيرا ثم حاربونا . نعم هؤلاء أكرههم . لكنى لا أكره اليهود لانهم يهود . لم أعرف كثيرين منهم فى حياتى ولكنى عرفت واحدا وكان من أعز أصدقائى . كان اسمه أبراهيم . رفض أن يسافر الى هناك . كان يقول انا مصرى ويهودى . سأظل فى مصر حتى لو جندونى فى الجيش . سأحارب ولكنى لن أغير جنسيتى ولن أغير دينى .

قالت باولا باهتمام وماذا حدث له ؟ وضعوه فى السجن ؟ أليس كذلك ؟

ـ لم يحدث له شىء أبدا . كان موظفا فى شركة فى قلب القاهرة وظل يعمل بها الى أن مات من سنتين .

فقالت بانتصار أرأيت ؟

ـ ماذا ؟

قالت : مات !

فقلت بدهشة نعم مات . مات كما يموت كل الناس . مرض ومات . حزنت عليه كثيرا ومشيت فى جنازته . دفن فى مقابر اليهود مع أبيه وأجداده فماذا فى ذلك ؟

ضمت باولا شفتيها وراحت تهز رأسها بلا اقتناع ثم قالت : هناك شىء رمزى فى موته مع ذلك ؟

قلت : ماهو هذا الشىء الرمزى من فضلك ؟

ـ ولكن هذا واضح تماما .. مات لانه عاش ممزقا ولم يجد السلام .

ـ وكيف كان سيجده ؟

ـ مثلا بأن يعرف انه ليس هناك عداء بين دولته وبين مصر . لو كان السلام لظل صديقك حيا .

ـ حتى ولو كان سبب موته هو السرطان ؟

فقالت باولا وهى تلوح بيدها خذ كلامى أيضا بمعنى رمزى . أقصد أنه لو ظل السلام .. أقصد لو أنكم فى مصر .. اقصد انكم لاتعرفون معنى الحرب الحقيقية . نحن فى أوروبا عشنا هذه الحرب ونعرفها .. اذكر وأنا طفلة أننى كنت أقف فى طابور بالساعات لاحصل على قطعة خبز بحجم الكف .. لم أعرف ماهى الشيكولاتة ولا البسكويت الى مابعد العاشرة من عمرى . لا أحد يريد الحرب وصدقنى أن هناك كثيرين من المصريين يريدون السلام ..

رن شيء فى عقلى . قلت أنا سمعت هذا الكلام من قبل . ولكن أين ؟ .. نحن فى اوروبا نعرف الحرب ولكن أنتم لاتعرفون .. السلام جميل . مصريون يريدون السلام . وفجأة هتفت أكملى يا باولا ..

لم ينتبه احد لصوتى المرتفع . كان كل من فى الملهى الان يتكلمون بصوت عال .. وكانت ضحكات نسائية كثيرة ولغط يطغى على صوت الموسيقى التى استمرت رغم ذلك تعزف .. نظرت باولا بشيء من الدهشة فقلت لها أكملى . هناك مصريون يريدون السلام .. وهناك منظمة تعمل من اجل السلام .. وهذه المنظمة تتبع حلف الاطلنطى و .. و .. أليس كذلك ؟

تذكرت الان كل ذلك الكلام . كنت قد سمعت اعترافات واحد من الجواسيس فى الاذاعة وكيف بدءوا معه . سمعت كل تلك العبارات من قبل ..

قالت باولا عابسة الوجه : ربما ..

فقلت لا ، ليس ربما بل مؤكد يا باولا . هيا ، كم دولارا فى الشهر ؟ كم دولارا سأخذ فى الشهر ؟ .. كم ثمنى عندك بالضبط يا باولا ؟ .. لم يكن هناك داع لهذه المقدمات : أننى أعجبك وأننى عاقل وأننى اختلف عن الاخرين .. لم يكن هناك داع حتى لهذه السهرة هيا ، حددى بالضبط : كم دولارا فى الشهر ؟

ظلت باولا تتطلع الى عابسة لفترة ثم فجأة انفجرت بالضحك وهى ترجع برأسها الى الوراء وقالت ولا دولار واحد !

ـ ولكن لماذا ؟ لست اقل من غيرى .

فقالت وهى لاتزال تضحك ـ بل اقل بكثير . امثالك لا فائدة منهم . أنت يمكن أن تضيعنى أنا نفسى ..

ثم كفت عن الضحك وأشارت بيدها بحركة باترة وقالت انتهينا . فلنقل اننا لعبنا الورق وانني انهزمت . لم أكن ماهرة بما فيه الكفاية . أو كنت أنت ابرع مني فأنهزمت ولكنك « جنتلمان » ولن تذكرني بهزيمتي أليس كذلك ؟

قالت ذلك ومدت يدها فسحبتني من يدي وهي تقول هيا نرقص . هيا .. لا تعترض . ليس عليك الا أن تقلد القرود وهذا هو الرقص ..

وبينما كنت أمسكها وندور معا وسط الراقصين كيفما اتفق .. قالت وهي تضحك ضحكات خافتة متقطعة .. ومع ذلك ياصديقي فلا تبالغ في حكاية القرود هذه . لا داعي لكل هذه الحركات وتحرك ببطء أكثر ..

لكنني توقفت فجأة وقلت اسمعي . هل حدثت ضحى عما . عما حدثتني عنه الان ؟ .

فقالت وهي تحركني معها لا ، ضحى متفرغة للحب . لافائدة من الحديث معها عن أي شيء آخر .

قلت لنفسي هذا فخ آخر فسألتها باستخفاف ما ادراك ؟

قالت ياصديقي هناك قانون من قوانين الطبيعة يجب أن تعرفه . اقصد أن كل امرأة لابد أن تحكي لامرأة أخرى عن أسرارها .. أقصد أسرارها الخاصة بالرجال ..

ـ حقاً ؟ وماذا قالت لك ؟

ـ أشياء كثيرة . يحتمل ، ان رضيت عنك ، أن اعرفها الليلة بنفسي .

قلت وأنا أسحبها لنعود إلى مائدتنا بعد أن أصطدمت بكثير من الراقصين واعتذرت لهم مرات كثيرة أرى ياباولا ، أنك واثقة جدا . مع أنني لم اقابلك في فيافينتو ..

فقالت لا تكن وقحا ...

ولكن وجهها لم يكن غاضبا أبدا وهي تقول ذلك . كانت تميل علي بجسمها كله ثم قالت ودون أن تغتر ياصديقي فيجب أن تعرف قانونا آخر . رجل المرأة الآخرى يصبح مرغوبا فيه بصفة خاصة . لاسيما لو كانت جميلة ..

ثم مالت علي وهي تضحك وقبلتني قبلة طويلة مخمورة كالقبلات التي كانت الآن تتناثر على الموائد حولنا ..

وكنت أنا أيضاً لا استطيع أن أكف عن الضحك ولكني أحذر نفسي باستمرار : لاتدع هذه الايطالية ترغمك على الاعتراف بشيء ، فقلت وسط

الضحكات هذا نبيذ مغشوش ..
قالت : وأنت ؟ مغشوش أيضاً ؟
فقلت : هذا ما لن تعرفيه ..
فقالت بلا أكتراث وهى تلوح بيدها كعادتها لايهم أبدا . صاحبنا مغرور جدا . عندى صديق مضمون لو ادرت الليلة . يعنى ، لايهم أبدا . صدقنى . أنا فكرت فقط أنه مع الحالة التى فيها ضحى الليلة ...
ـ أية حالة ؟
فقالت باشمئزاز أية حالة ! السنيور يسألنى أية حال ! لاأطيق التجاهل ولاأطيق التغابي . الحالة التى وضعتها فيها ياسنيور .. حالة الاجهاض ...
ولكن فجأة انكمشت باولا فى مقعدها وقد اصفر وجهها وقالت بصوت خافت معذرة .. معذرة .. لن تغفر لى ضحى .. لن أغفر لنفسى . ثم وضعت يدها على وجهها وهى تقول هذا النبيذ .
• لاأذكر كل ما حدث بعد ذلك لاأذكر كيف تركت باولا . أذكر أننى فى غرفتى فى الفندق والتليفون يرن فى غرفة ضحى ولكنها لاترد . أذكر أننى اقفز درجات السلم وأدق بابها ولكنها لاترد . أذكر أننى بعد طرقات عنيفة قلت ضحى . أفتحى . باولا قالت لى كل شىء .. افتحى أو أحضر المفتاح من تحت .. من الاستقبال .
وفتح شخص باب غرفة مجاورة لضحى وأطل وهو يقول ما هذه الضجة فى الفجر ؟ أنت مجنون ؟
ووجدتنى اهجم عليه فجأة فدخل بسرعة وهو يشتمنى ويغلق بابه . وفى لحظتها فتحت ضحى وظهرت بقميص نومها وهالات سوداء تحت عينيها وقالت وهى تستند بجسمها كله إلى الباب أرجوك أن تتركنى الليلة .
تقدمت لأدخل الغرفة وأنا أدفع الباب ولكنها مدت يدا ودفعتنى بامتداد ذراعها كله فترنحت وكدت اسقط بينما كانت هى تقول بصوت مختنق :
ـ ابتعد . أنت لست هو ..
ثم صفقت الباب ..

- ١٢ -

جربت من قبل فى حياتى خيبة الأمل فى الحب . أحببت فتاة لم تبادلنى الحب ، وعرفت آخريين تعثرت علاقتى بهما فى منتصف الطريق . عرفت ذلك الالم ، أن يشعر الانسان أنه مرفوض ومهان وضئيل أمام نفسه ولكنه لايملك ألا أن يجب سبب ذلك كله . لايملك ألا أن يراوده الأمل فى أنه ربما بطريقة ما ، بمعجزة ماستورق من جديد تلك الشجرة التى سقطت فى الأرض وماتت . ستصل رسالة ما ، مكالمة ما ، سيلقى الوجه الذى هجره فجأة فى الطريق فتبتسم العيون وتتعانق الأيدى ويرجع كل شىء . ستتحقق فى الصباح أحلام الليل . ولكن مع الزمن وإذ تظل الأحلام احلاما ، لاأقول أن الجرح يشفى ، ولكنى كنت اتعلم كيف أعيش مع تلك الحربة المرشوقة فى داخلى كأنها جزء منى إلى أن يأتى حب جديد وألم جديد .

أما مع ضحى ، بعد تلك الليلة مع ضحى ، إذ تلقانى فى الصباح ضحى جديدة ، شاحبة ، وباسمة ، ضحى تصافحنى كما لو كانت الآن ، فقط ، تتعرف على . تحدثنى بلهجة عادية تماما ، هادئة تماما ، بل تكاد تكون ودودة ، تحدث زميلا طيبا ، صديقا قديما ، لم يكن حميما جدا ، ولكنها وجدته فجأة بعد غيبة ، تقاطعنى كلما هممت أن أشير إلى ما حدث بالامس ، إلى ماحدث قبل ذلك ، إلى ماكان بيننا فى أى وقت . إذ ينتابنى الجنون ونحن فى حديقتنا الصغيرة فى طريقنا للمعهد فأضمها بين ذراعى بقوة وأنا أقول ضحى ، لماذا لم تقولى لى عما حدث لك ، ضحى ، ألسنا حبيبين ؟ ألم نتفق على أن نتزوج ؟ فلا تقاومين وأنا اضمك إلى . لاتقاومين وأنا اهز كتفيك بينما أسألك . ولكنك بعد أن ينتهى صراخى تبتعدين قليلا وترفعين إلى عينيك السوداوين الواسعتين متبلدتين قليلا ، وتقولين بهدوء تام ، بلهجة قاطعة وان لم يرتفع صوتك ، لا لسنا الآن حبيبين . كل شىء انتهى ويحسن أن تنساه . وأسألك ولكن ماذا ؟ فتقولين باللهجة نفسها وأنت تمسكين ذراعى بيدك فى رفق أنت لاتسأل انسانا لماذا أحب ولا لماذا مات حبه ، أليس كذلك ؟

ثم تتلفتين حولك فى تلك الحديقة الصغيرة ، وقد فرغت منى تماما ، انتهيت من شأنى إلى الأبد ، تنحنين وأنت تقولين ها هى براعم الداليا قد ظهرت ، هل سنراها قبل أن نعود إلى القاهرة ؟
فأسألك ويخرج صوتى ضعيفا وغريبا هل السبب هو أنى لا أعرف أسماء الزهور ؟

فتنتصبين مبتسمة وأنت تنظرين إلى فى دهشة ، ولكنك لاتردين .

لا . لم أعرف شيئًا من ذلك من قبل . ما عرفته عن الحب قبل ضحى لم يكن له معنى . نعم ، ربما بدأت تلك الاعراض الأولى التى عشتها من قبل : الأمل فى أن ذلك شجار مثل غيره ، انسحاب عابر سينتهى بأن تطرق بابى من جديد فآخذها فى داخلى أو بأن تفتح لى بابها وذراعيها حين أطرق أنا بابها . ولكننا لم نعد حتى نلتقى . فى الصباح كانت تتعمد الخروج قبلى بكثير أو بعدى بكثير ، وفى المعهد ظلت مثلما اعتادت من قبل تجلس بعيدة عنى وسط آخرين . أما فى المساء فكانت تخرج مع باولا ، أو ببساطة ، تختفى .

وقضيت ليلة بأكملها أكتب خطابا . كتبت حبيبتى ضحى . حبيبتى ايسيت . ثم شطبت حبيبتى ضحى واكتفيت بضحى ايسيت ، كتبت وعدت ياايسيت أن تضمى اشلائى من جديد . ها أنا مبتور ومبدد . ها أنا الآن احتاج إليك . ها أنا الآن انتهى واحتاج أنفاسك لترد لى ، مرة أخرى نسمة الحياة التى وهبتها اياى فى البدء . كتبت صفحات ، وقبل الفجر دفعت الخطاب تحت باب غرفتك . وفى الصباح ، كنت ارتجف حين سلمنى موظف الاستقبال فى الفندق خطابا عرفت على مظروفه خطك . كانت يدى ترتعش وتتعثر وأنا أحاول أن افض ذلك المظروف وحين فتحته وجدت خطابى إليك دون كلمة أخرى .

وما بعد ذلك كان الجنون . أذكر الليلة التى طرقت فيها بابك فى الليل فقلت من الداخل بصوت حاد ان لم تنصرف سأستدعى موظف الاستقبال ، وان لم يكف الموظف فسأستدعى البوليس . أذكر الليلة التى طلبتك فيها فى التليفون وحين رفعت أنت السماعة سألتك ضحى ؟
ثم اختنق صوتى لكنك وضعت السماعة فى هدوء . والليلة الأخرى التى طلبتك فيها وقلت لك ياعاهرة ، أى واحد فى المعهد تنامين الأن معه ؟ كم

واحدا تنامين الآن معه ؟ ولكنك أيضاً تضعين السماعة دون رد . وربما كانت تلك أيضاً هى الليلة التى خرجت فيها للطريق وأخذت أول واحدة على الرصيف قالت لى (بونا سيرا) وذهبت معها إلى فندقها ، ولكنها طلبت أن تقبض قبل أن نصعد إلى غرفة الفندق . وحين بدأت تخلع ملابسها بمجرد أن أغلقنا الباب وراءنا منعتها وأمسكتها من يدها فأجلستها على طرف السرير فى تلك الغرفة الصغيرة المبطنة الجدران بأوراق حائط بنية كئيبة ، وجلست قبالتها على الكرسى الوحيد وسألتها أرجوك ، قولى لى لماذا تترك واحدة واحدا يحبها ؟ لماذا ان كانت قد قالت أنها تحبه ؟ أن كان يعرف أنها تحبه ؟ فقالت تلك التى كانت رمادية العينين ذات باروكة كبيرة شقراء وتتكلم انجليزية ركيكة آه .... إذن أنت واحد ممن يحبون الكلام ؟ ثم ضحكت وهى تسند ذراعها على حاجز السرير الصغير وقالت من حقك عشرون دقيقة فافعل فيها ما تشاء . وراحت تنظر إلى وأنا أحكى بسرعة ، تزر عينيها مرة ، وتبتسم مرة أخرى ، وأخيرا تنظر فى ساعتها وتقول معذرة . قلت لك ياسنيور أننى لا أعرف الانجليزية جيدا . لاأفهم تماما ما تقول . وتزيح ذيل جونلتها التى كانت لاتصل إلى نصف فخذها ، ثم تمد ذراعها وتجذبنى إليها وتقول وهى تبتسم ولكننى أعرف أنه فى حالتك تماما أن تنام مع السنيورة انجيلا : أنا انجيلا هل تفهم ؟ أنا ملاك وتركتنى وأخذت ترفرف بذراعيها كجناحين ثم مدت يدها مرة أخرى وراحت تجذب رأسى نحو صدرها وهى تقول تعال إلى انجيلا . تعال إلى ماما . فاقوم مندفعا نحو الباب واسمعها تقول بصوت عال انتظر ، يمكن أن أعطيك نصف نقودك لو أردت .

وأذكر حين ذهبت إلى باولا . تركت احدى المحاضرات وذهبت إليها فى مكتبها وكانت تجلس هناك وحدها ، وحين رأتنى خلعت نظارتها الطبية ونحت الاوراق التى كانت تقرأ فيها وقالت آه ... سنيور ، هل لدينا مشاكل ؟ تغيبنا كثيرا عن المحاضرات فى الفترة الأخيرة .

جلست قبالتها ، فى مكتبها المحاط كله بشرفات واسعة ذات واجهات زجاجية . قلت لاأشعر أنى على ما يرام . فابتسمت باولا . قالت ان كانت لديك مشاكل فى المعهد أو فى الفندق أستطيع أن أحلها . أما المشاكل .. الأخرى ، فأنا آسفة جدا . ولكنها قامت من وراء مكتبها وجاءت فجلست قبالتى وقالت هل هى مشاكل خطيرة ؟ .. فقلت لها فجأة ماذا قالت لك

ضحى ؟ ماذا قالت لك عنى ؟

تطلعت باولا ناحية الباب كأنها تخشى أن يدخل أحد وقالت بصوت خافت هل تظن أن هذه مشكلة يمكن أن نتكلم فيها هنا الآن ؟ . قلت لها أقابلك الليلة . فقالت أنا آسفة . هذه الأيام أنت تعرف أن الدورة تقترب من نهايتها وأنا مشغولة جدا . ظللت صامتا فمدت يدها وربتت على يدى وقالت بلهجة ودية ستخرج وحدك من هذه المشكلة ، هذه هى المشكلة الوحيدة التى لايستطيع أن يساعدك فيها أحد . فهتفت إذن فقد قالت لك ضحى شيئا ؟... هزت رأسها وقالت لا . عن تلك المشكلة الأخيرة لم تقل ضحى شيئا . صدقنى لم تقل كلمة واحدة ولكننى أفهم . ثم ضحكت باولا ضحكة عالية لم تستطع أن تكتمها وهى تقول هذا واضح كالشمس . ومدت يدها تصنع بأصبعها دائرة حول حبيبنى وهى تقول اسمع ياصديقى كانت هنا هالة ثم ذهبت . هذا أستطيع أن أراه بنفسى دون أن تقوله ضحى . فقلت لهذا لا تريدين أن تقابلينى الليلة ؟ فقالت وهى تنهض وتعود وراء مكتبها مرة أخرى نعم ، لهذا ولغيره ، نعم الآن أنت أيضاً صرت عاديا كالآخرين .

وقفت وقلت بصوت خافت وأنا اقترب من مكتبها ، اسمعى يا باولا . أعدك بشرفى أن يظل هذا سرا بيننا . لن أتحدث عنه مع مخلوق ولكننى أريد أن أفهم .. هل كلمت ضحى عما كلمتنى عنه ؟ ... هل كلمتها عن السلام واسرائيل والاطلنطى وهذه الأشياء ؟

نهضت باولا بجذعها وعيناها تبرقان وفتحت فمها كأنها تريد أن تطلق سبابا ، ثم تمالكت نفسها وعادت إلى الجلوس وقالت بابتسامة مغتصبة وبلهجة عابرة وعدتنى كرجل ألا تعود إلى هذا الموضوع .. لكن اسمع ما دام هذا يهمك . سأبوح لك بسر ، نحن لا نحاول مرتين فى نفس الدائرة نعرف أنك يمكن أن تشى بها لو قبلت . صدق أو لا تصدق ولكن أحدا لم يحاول مع ضحى . هل ارتحت الآن ؟ .. هل يمكن أن تكون هذه آخر ، آخر ، مرة نتكلم فيها عن هذا الموضوع ؟ يمكنك من فضلك أن تعود إلى المحاضرة فعندى عمل لابد أن انهيه .

ولكنى لم أرجع للمحاضرة . خرجت وسرت فى الشوارع مثلما اعتدت أن افعل فى الأيام الآخيرة .. دخلت إلى احدى الحدائق . كانت اشجار كثيرة تنتصب الآن وقد تعرت غصونها من الأوراق . جلست على مقعد خشبى إلى جوار رجل عجوز يضم شفتيه ويمتص خديه الضامرين بحركات

مستمرة . قال لى بالانجليزية هل معك سيجارة ؟ ... وحين أعطيته سيجاره راح يتأملها ويديرها بين اصابعه قبل أن يشعلها ثم قال وهو يهز رأسه هذه الحياة صعبة ياسيد . فضحكت وقلت مما تتصور ياسنيور هل فكرت مرة فى الانتحار ؟ فقال العجوز وهو يضحك فكرت ؟ .. فكرت فى الانتحار ؟ أنا انتحرت بالفعل ثلاث مرات . وراح يرفع كم الجاكتة القديمة المهترىء وأطلعنى على رسغه الذى كانت تحزه ندوب غائرة فاتحة اللون وقال لى هذه احدى المرات . سألته ولكن لماذا ؟ .. فراح يتمطق بشفتيه . قال دعنى أتذكر .

أخذ نفسا من السيجارة وراح يهز رأسه ثم قال نعم .. نعم . ربما كان ذلك بعد أن ماتت زوجتى . أو ربما كان ذلك فى المرة التى حدثت أثناء الحرب . مرة أيضاً رميت نفسى فى النهر ، ولكن دائما يأتى من ينقذك . لايتركونك فى حالك أبدا . ضحكت ولكن العجوز لم يضحك . كانت تفاحة آدم تتحرك بسرعة فى رقبته الرخوة الجلد وهو يهز رأسه طول الوقت . قال ياسنيور عندما تقرر الانتحار تكون وقتها قد مت بالفعل . ما ينقذونه بعد ذلك لايكون هو أنت ولكن جثتك .

لم انتحر مع ذلك . ولكن فى تلك الأيام كنت أخرج فى الليل وأمشى فى البرد ولم أنتبه للسعال الذى كان يزيد يوما بعد يوم . وذات صباح حين فتحت عينى لم أستطع أن أنهض من فراشى ، ولم أكن أرى شيئا . وعندما مددت يدى لامسح عينى كان عرق غزير وكنت أتنفس بصوت مسموع وكنت أقول ضحى فجاءت ضحى وكانت ايسيت وكانت جميلة بشعر أسود مسترسل وثوب أبيض شفاف وطويل وكانت تمسك بيدها زهرة لوتس وانحنت وقبلتنى وقربت زهرة اللوتس من وجهى وقالت ستصبح أنت الزهرة وعندما تبعث من جديد لن تتذكر الألم . وغاص وجهى فى الزهرة وكانت كأسها عميقة وواسعة وكانت ايسيت تحتضننى فصرنا واحدا أنا وضحى والزهرة وجاءت باولا وكانت غاضبة وقالت هذا ليس فى دانتى الليجيرى وجاءت أمى وكانت تمسك دجاجة مذبوحة وكانت تبكى وجاء أبى يلبس ثيابا سوداء وقال « أريفيدرشى » وكانت الزهرة عميقة ولم يكن لكأسها قرار ..

ولكن ضحى لم تأت .

ولما نهضت من الفراش بعد يومين كنت مبتورا وكنت ناقصا ولكن ما بقى منى كان يشبهنى ولم يلاحظ أحد شيئا .

- ١٣ -

ونحن فى طريق العودة إلى القاهرة تذكرت رحلتنا إلى روما قبل شهور قليلة . كنا نجلس فى الطائرة متجاورين أيضاً ولكننا لم نتبادل كلاما كثيرا . تصرفنا كجارين مهذبين فى رحلة قصيرة . أحيانا تلفت ضحى نظرى إلى تشكيلات غريبة للسحب التى نحلق فوقها أو إلى الجزر الصغيرة فى البحر . تطلب الصحيفة . لو سمحت . شكراً لانى أناولها فنجان القهوة من يد المضيفة . أسفة للازعاج ، لأننى يجب أن أقوم لكى تتناول شيئا من حقيبة اليد المحفوظة فى الخانة الصغيرة أعلى المقعد ، وهكذا .

أما أنا فلم أكد أقول شيئا طوال الرحلة .

وصلنا القاهرة فى المساء واشترت ضحى من السوق الحرة أشياء كثيرة ، أهتمت بالذات بربطات العنق الرجالية ، وكانت تحمل فى يدها حقائب صغيرة متعددة ونحن فى طريق الخروج . ولمحت فى صالة المطار أختى الصغيرة سميرة تقف مع حاتم وشخص طويل وانيق لاأعرفه . وكانوا يلوحون لنا بحماس .

وخمنت أن الشخص الثالث هو زوج ضحى . تغير وجهها فجأة بمجرد أن رأته وشعرت بها إلى جوارى مشدودة ومتوترة . ولما خرجنا إلى الصالة تقدم هو من ضحى فاردا ذراعيه وبدا لى أنها تهم بأن ترجع خطوة للخلف ، بل لعلها رجعت بالفعل خطوة للخلف ، ولكنها فجأة رمت الحقائب التى فى يدها على الأرض واندفعت إليه فضمها بين ذراعيه وألصقت هى رأسها على صدره العريض . وقتها كانت أختى سميرة تعانقنى وحاتم يرحب بنا وسط ضحكات عالية . ولما تركتنى سميرة صافحنى حاتم بقوة ثم قال بلهجة مندهشة ما هذا ؟ ألم يكن هناك أكل فى روما ؟ ما كل هذا النحول ؟ فقلت وأنا أحاول أن أضحك أخذت أنفلونزا أوروبية فحاذر أن أعديك .

وكانت يد أخرى ممدودة لتصافحنى وضحى تقول لى زوجى شكرى . ثم استدارت تصافح سميرة وحاتم . مددت يدى وصافحت شكرى وابتسم هو إبتسامة ودودة وهو يقول لى أرجو ألا تكون ضحى قد أتعبتك أثناء السفر .

فقلت وأنا ألوح بحقائب عديدة صغيرة فى يدى باستثناء هذه الاحمال لاشىء ..

فمد يده يتناول منى الحقائب وهو يضحك ويقول ولكن هذا بالضبط ما أقصده . لابد أن نصف وقتك فى روما ضاع فى مشترياتها . فقلت ضحى أكثر خبرة وذوقا من أن تحتاج إلى فى ذلك .

تطلعت إليه . كان شعره الكستنائى الناعم مرجلا إلى الخلف ومعتنى به مثل شاربه المشذب . وكانت عيناه عسليتين واسعتين فيهما نظرة كأنها مندهشة ويكاد يكون فى وجهه الجاهز للابتسام دائما شىء طفولى . أحياناً فى روما كنت أتخيل تلك اللحظة وأخافها . كيف سأقابل الرجل الذى سرقت زوجته لنفسى لكى اتزوجها ؟ .. ذلك الذى خنته دون أن أعرفه وسأحرمه من ضحى ؟ الآن ، وأنا أتأمله ، عجزت عن أن أشعر بالذنب . حاولت أن أشعر بأى شىء ولكنى لم استطع .

وفى الطريق إلى البيت وحاتم يصحبنى فى سيارته أنا وسميرة ويسألنى أسئلة كثيرة عن روما وعما رأيته كنت أرد ردودا قصيرة فقال حاتم بقلق ماذا بك ؟ هذا النحول وهذا الشرود ؟ الناس ترجع من أوروبا سعيدة لاهامدة هكذا .

قلت وأنا اركز أفكارى بصعوبة لاتشغل بالك ياحاتم . الانفلونزا وارهاق السفر . طبختان من يد سميرة وأرجع كما كنت .

وعندما وصلنا إلى البيت قال حاتم ربما يحسن أن ترتاح فى البيت يومين أو ثلاثة قبل أن ترجع للعمل . فقلت سأرى . عملى ليس مرهقا على أى حال .

وفى البيت عانقتنى سميرة مرة أخرى وقالت أوحشتنى . لو تعرف كم أوحشتنى ، كانت تتكلم بعصبية وانفعال وتضمنى إليها كل لحظة ثم تبعدنى قليلا وتقول فى دهشة حقا ماذا بك ياأخى ؟ لماذا أنت هامد هكذا كما يقول الاستاذ حاتم ؟ أهو بالفعل ارهاق السفر ؟ قلت نعم .

وفى اليوم التالى بقيت فى البيت مع سميرة التى أصرت أن أظل معها . قالت كدت أجن فى هذا البيت الواسع وأنا وحدى . اشتقت لمجرد الكلام . قلت ولماذا لاتقرئين ياسميرة ؟. على الأقل لتشغلى وقتك . البيت ملىء بالكتب . فمطت شفتيها وقالت القراءة تزيدنى مللا . ثم نظرت حولها وهى تهز رأسها وقالت لو أنك بدلا من كل هذه الكتب .. ولم تكمل . كانت سميرة

قد بقيت فى البيت بعد أن حصلت على الاعدادية الفرنسية مثلها مثل أختها سعاد ، بناء على قرار ابى . وكانت جميلة أيضاً مثل سعاد ولكنها اقربنا شبها بأبيها فى ملامحها ولم ترث عن أمها سوى القليل . وظلت سميرة قليلة الخبرة بالحياة ، كل ما تعرفه هو الاخبار والمعلومات التى تحصل عليها من زميلاتها القديمات فى المدرسة ، وكن ينقصن بالتدريج بعد أن تزوج معظمهن . ومع أنها لاتحب القراءة ، فقد كانت تشترى بانتظام المجلات التى تنشر أخبار الممثلين والممثلات .

غير أنها فأجاتنى فى ذلك اليوم الذى بقيت فيه معها بعد عودتى حين قالت ونحن على مائدة الغذاء . أسمع ياأخى . أنا فكرت كثيرة فى غيابك واتخذت قرارا .

واندهشت لاننى لم اتعود منها أن تتكلم بهذه الطريقة . اعتدت أن أدللها أو أعاملها دائما كطفلة رغم أنها بلغت الرابعة والعشرين .. وتطلعت إليها منتظرا أن تكمل فقالت اسمع ، أنا كدت أجن من هذه الحياة ، لاسيما بعد أن سافرت سعاد وسافرت أنت . أريد أن أشتغل وأريدك أن تساعدنى .

لزمت الصمت . لم يدر ببالى أبدا أن تشتغل سميرة كما أنى لم أفكر من قبل أن تشتغل سعاد . كنت مثل أبى انتظر أن يأتيهما العريس وأعتبر واجبى أن اعولهما إلى ذلك الحين وأن اجهزهما حين الزواج . ولم أرد أن أجرح سميرة وأقول لها أن شهادتها لاتسمح لها بأى وظيفة معقولة ، ولكن كأنما تكهنت هى بما أفكر فيه فقالت أنا أعرف أن شهادتى صغيرة ، ولكن سأتعلم الآلة الكاتبة الأفرنجية ومازلت أذكر بعض اللغة الفرنسية . ربما تستطيع تجد لى وظيفة فى أى مكان . أرجوك .

كانت دموع تلمع فى عينيها بالفعل وهى تقول ذلك فقلت سأحاول ياسميرة . لاأعرف كيف ، ولكنى سأحاول .

غير أنها ظلت تنظر إلى بضراعة والدموع تنزل من عينيها فقلت يمكنك ان تبدئى دروس الآلة الكاتبة من غد إذا أحببت ، وحين تنتهين منها سيكون لك عمل .

لم أكن أعرف كيف سأفعل ذلك ، ولكن وجهها أشرق بمجرد أن سمعت ما قلت وقامت فقبلتنى من جديد ..

وفى اليوم التالى ذهبت إلى العمل . كان أول من رأيت هو مصطفى فى دكان السجائر الذى حيانى بترحيب مبالغ فيه وقال « حمدالله على السلامة . أوربا ياعم ! يابختك . عشت كم شهر على « وش » الدنيا » . فقلت ولكن بلدنا أيضاً جميل يامصطفى . ألا تعرف أن بلدنا هو أصَل الدنيا ؟ .. تلفت مصطفى حوله ونظر بلا شعور فى اتجاه مبنى الاذاعة وقال أنا لم أقل ياأستاذ .. ثم رفع صوته وهو يقول كلنا نعرف أن مصر أم الدنيا ورئيسها أشجع رئيس . ولما أطمأن أن الطريق خال ، مال نحوى مرتكزا على العارضة الزجاجية ، وقال أن شاء الله تكون أحضرت معك سجائر أجنبية أو ويسكى ؟ لم يعد المشترون كثيرين . ولكنى استطيع أن اتصرف من أجلك . والدولارات مطلوبة هذه الأيام أن كان قد بقى معك شئ . قلت له أنا لست تاجرا يامصطفى ، فرجع إلى الخلف باستنكار وقال وهل التجارة حرام ؟ التجارة أشرف مهنة ياأستاذ . قلت له بالطبع يامصطفى ، المسألة أنى لست تاجرا . فتنهد وقال فى همس وأين هى التجارة ياسيدى ؟ .. متى يفرجها ربنا ويعود الحال كما كان ؟ .. فقلت لأغير الموضوع هل رأيت سيد القناوى أثناء سفرى ؟. هل نزل فى أجازة مرة أخرى ؟ .

فقطب مصطفى جبينه وقال مندهشا اجازة ؟ . ألم تعرف ؟

وجف قلبى وقلت : لا ، ماذا جرى له ؟

فقال مصطفى : سيد مسكين ياأستاذ . ضاعت رجله فى الحرب وهو الأن فى المستشفى .

صعدت إلى المكتب . لم يكن هناك أحد ، ولما اتصلت بحاتم قال فى التليفون نعم ، لم أشأ أن أخبرك بمجرد وصولك . سيد الآن فى مستشفى التأهيل .

- ١٤ -

حين نزلت من الترولى باس فى محطة مستشفى التأهيل فى العجوزة كان أول من رأيت جنودا كثيرين بأزيائهم الصفراء يدفعون أمامهم مقاعد متحركة فوقها رجال يلبسون جلابيب بيضاء . يبرز من كم الجلباب ذراع واحدة أو من اسفله ساق واحدة . بعضهم كان ينقصه الذراعان والساقان . ولم أكن بحاجة إلى أن أسأل أحدا عن طريق المستشفى . تبعت ذلك الموكب المتقطع من الجنود والجلابيب البيضاء والمقاعد المتحركة حريصا على ألا تلتقى عينى بعينى أحد . وكان بعضهم يتوقف أمام باعة الفاكهة الذين يجلسون على الارصفة وأمامهم أقفاص من اليوسفى والبرتقال المرصوص كأهرامات صغيرة تلمع فى الشمس . توقفت أنا أيضاً أمام واحد من الباعة واشتريت كيسا من البرتقال ...

لم يكن سيد فى غرفته التى اعطانى رقمها حاتم ولم يكن أحد هناك . وقالت لى ممرضة تدفع أمامها مقعدا عليه شخص كل وجهه ملفوف فى الشاش لاتبحث عن أحد فى غرفته . كلهم الآن فى الحديقة عند حمام السباحة . ودلتنى على المكان ، فتركت الفاكهة فى الغرفة ونزلت .

وحول حمام السباحة بمياهه الزرقاء المتلألئة بأشعة الشمس كانت الحديقة تزدحم بالمقاعد المتحركة والجلابيب البيضاء وثياب الجنود الكاكية وثياب الزوار الملونة ، وصيحات الأطفال الذين تركوا أباءهم وراحوا يلعبون فى الحديقة ، وخبطات النرد فى الطاولة وضحكات عالية . وكان سيد هو الذى لمحنى ونادانى . لوح بيده من بعيد وسط الزحام ثم أخذ يدفع بيديه عجلتى كرسيه ناحيتى ، أسرعت أنا إليه لكى لا أحمله ذلك الجهد وحين التقينا هم بجذعه قليلا فوق مقعده وهو يستند باحدى يديه وانحنيت اعانقه . قال بفرحة متى وصلت ياأستاذ ؟ ... قلت من يومين ولكنى لم أعلم أنك .. أنك هنا غير اليوم .

جلست قبالته على أحد مقاعد الخيزران التى تتناثر فى الحديقة وقلت

وأنا أحاول أن ابتسم حمدالله على سلامتك ياسيد ... كما نقول فى بلدنا قضاء اخف من قضاء ...

فضحك سيد بصوت عال وهو يلوح بيده وقال ياأستاذ أنت المفروض أن تبارك لى . سأخذ تعويضاً كبيرا هكذا « وباعد بين ذراعيه ليصور كم هو كبير » يكفى لان ابنى بيتا للاولاد ولان احج إلى بيت الله . سيعطوننى ايضاً أولوية فى قرعة الحج وفوق ذلك سيركبون لى ساقا كالطبيعية تماما . وقال وهو يخبط على الفراغ فوق جلبابه ويضحك . بل يقول الأطباء انها تعمل احسن من الساق الطبيعية ..

ابتسمت ابتسامة صغيرة وأنا أقول كل هذا لايساوى تضحيتك ياسيد .

فقال أية تضحية ياسيدى ؟ .. ها أنت تتكلم مثل الاستاذ حاتم والتوجيه المعنوى .. « ثم ابتسم فجأة ومال على وقال وهو يهمس » بالمناسبة التوجية المعنوى شغال هنا تمام . لم أسمع فى حياتى ناسا تضحك طول الوقت مثل المصابين هنا . الزوار وحدهم هم الذين يركبهم الهم وتراه على وجوههم .

أدهشنى قوله وتلفت حولى وبالفعل رأيت معظم الجالسين على المقاعد المتحركة يلعبون الطاولة وهم يتبادلون المزاح وكانت المفارقة صارخة بين وجوههم الباسمة ونظراتهم الصريحة وبين وجوه الزائرين المقطبة وعيونهم المسبلة . قلت لسيد بالهمس نفسه ولكن كيف وصل التوجيه المعنوى لهذه النتيجة ؟

قال سيد هم يقولون كلاما كثيرا ، ولكن أظن أهم شىء هو أنهم يضعوننا معا ويتركوننا .. كل واحد يحاول أن يخفف عن الآخرين وبالتدريج يرى الانسان كل شىء عاديا .. ولكن أنت ياأستاذ ، قل لى هل كنت مريضا أم ماذا ؟ سامحنى ولكنك تغيرت كثيرا ونحفت جدا .

حكيت حكاية الانفلونزا فهز سيد رأسه وقال بقلق خذ بالك من نفسك ياأستاذ .

سكت قليلا ثم قلت وكيف تركت اليمن ياسيد ؟

قال سيد تركت ساقي في اليمن .

واعجبته النكتة فضحك من جديد وقال من أجل خاطر مينا وجمال عبد الناصر ومن أجل خاطرك ياأستاذ تركت ساقى فى اليمن .

قلت كلامك هذا يؤلمنى ياسيد . يجعلنى أشعر أنى مسئول بشكل ما لانك فقدت ساقك فى اليمن .

فقال سيد بالعكس ، أنت لم تفهمنى . أنا كنت أريد أن أطمئنك أننى اتعلم بنفسى كما قلت أنت لى ذات مرة . تعلمت هناك أشياء كثيرة على الطبيعة وفهمت اشياء كثيرة كنت أسألك عنها . عندما هجم علينا رجال الامام بالليل ، وراحوا يضربون علينا بالنار من بيوت عالية فى الجبل كان هناك فلاحون يقفون معنا . بعضهم لم يكونوا يعرفون ضرب النار ولكنهم كانوا يحملون لنا الذخيرة ويدلوننا على البيوت التى يختبىء فيها الجواسيس والذين يضربون النار ، وكانت تلك هى بيوت كبراء البلد .

ثم مال سيد للامام وعاد يهمس لى بصوت اخفت من كل مرة : ولكن رجالنا ياأستاذ .. رجالنا أيضا بعضهم حارب كالرجالة ، والبعض الآخر .. الذين كانوا يشحنون الطائرات بالثلاجات والغسالات والسجائر الأجنبية الى مصــر ، هؤلاء فى ساعة الجد ..

ولم يكمل . عاد يستند فى كرسيه وراح يمسح شعره القصير بيده وقال بعض الفلاحين الذين وقفوا معنا أصابهم الرصاص مثلما أصابنا ، ولما مزقت رجلى شظية المدفع كانوا هم الذين حملونى للوحدة الطبية .. أما رجال الامام فكان اول شىء عملوه حين نزلوا القرية هو انهم احرقوا المدرسة الخشبية التى كلمتك عنها .. المدرسة التى بناها مهندسونا بصناديق الذخيرة ..

قلت رجال الامــام يعرفون عدوهم ياسيــد .

فقال سيد وهو يتلفت حواليه بنظرة تكاد تكون شاردة أما نحن فلا نعرفه ياأستاذ ..

ثم ثبت نظره على وقال بصوته الخفيض تلك البيوت العالية التى كانت تصب علينا النار . البيوت التى كان فيها الجواسيس وتحصن فيها رجال الامام ، بيوت الكبراء ، هى البيوت التى كان يزورها قادتنا وحكامنا ويحملون لسكانيها الهدايا والذهب . وبذهبنا اشتروا السلاح الذى قتلنا ..

ثم شردت عيناه من جديد وحول وجهه عنى ولزم الصمت . وحولت أنا أيضا وجهى دون هدف الى حيث ينظر . كان أحد المدربين يقف بالمايوه على حوض حمام السباحة ويوجه شخصا يغطس فى الماء بنغمة عالية رتيبة مثل مدرس الالعاب . وكان الرجل فى حمام السباحة يغطس طويلا ثم

يطفو على سطح الماء وهو يشهق ويسعل ويمد يديه ليمسك بحافة الحوض ولكن المدرب ينحنى عليه ويقول تمام .. تمام ياكابتن .. ماذا قلنا ؟ .. عيب .. لن نخرج الآن بعد هذا التقدم .. المرة القادمة أحسن ان شاء الله .. هيا .. هيا .. فلنكمل .. ماذا قلنا ؟ .. الذراع تعمل على الساق الناقصة وأكثر ..

ولم أعرف ان كان الآخر يسمعه وسط سعاله وشهيقه أم لا . كان يخبط الماء بيديه ويئن بصوت عال كانه يستغيث .. والآخر يكرر قلنا الذراع تعمل عمل الساق وأكثر .. هيا .. هيا .. وأدرت وجهى للناحية الأخرى . ورأيت طفلين دون الخامسة شعرهما مجزوز فوق الاذنين مع ترك خصلة كبيرة فى وسط الرأس ، وكانا يرتديان قميصين وبنطلونين من قماش رخيص ، وعيونهما العميقة السواد غائرة قليلا فى محاجرها . ولم يكن سيد بحاجة الى أن يقول لى مشيرا اليهما : ولداى صلاح وخالد .

مد سيد يده اليهما وقال سلما على عمكما ..

لكن الولدين تشبثا احدهما بالآخر وراحا يتطلعان الى من بعيد فى خوف وخجل ..

وقال سيد وهو ينظر اليهما هل تكون أيامهما أحسن من أيامنا ؟ لكنه لم يكن يسألنى ، ولم يكن ينتظر ردا .

- ١٥ -

بدأت سميرة تتعلم الآلة الكاتبة وامتلأت بالحماس وقالت انها بعد ان تعمل تريد أن تدرس وأن تحصل على الثانوية العامة ، وربما تنتسب للجامعة . وكان حاتم قد قال لى أنه لاتوجد أى مشكلة بالنسبة لعمل سميرة لأن سياسة البلد الآن هى تعيين كل الحاصلين على شهادات فى الحكومة . ونصحنى أن أقدم أوراقها لوزارة العمل التى أنشئت أيامها ففعلت وكانت سميرة تنزل كل يوم عدة مرات الى صندوق البريد بحثا عن خطاب التعيين ، ولما وصل هذا الخطاب وكنت سعيت لتعين فى مصلحة قريبة من البيت ، راحت تقفز وتصيح كطفلة .. وتعانقنى كل لحظة وهى تقول كيف أشكرك ياأخى ؟ كيف أشكرك ؟ ..

وفى تلك الايام ظهر فى حياتى لأول مرة عبد المجيد . كان موظفا جديدا متخرجا فى كلية التجارة ويعمل فى حسابات الوزارة ، طويلا وله شعر أسود غزير يلمع بالدهون . جاء الى مكتبى وعرفنى على نفسه ، وشرح لى أنه من بلدنا ، وأن هناك صلة قرابة بيننا عن طريق الأباء . وقال أنه فخور بمعرفة موظف كبير مثلى ، وأننى فى نظره عميد الأسرة وعميد منطقة القناطر فى القاهرة . نفرت منه عى التو ، ولكنه استمر يجىء ..

من حسن الحظ أننى لم أكن أبقى طويلا فى المكتب . كنت أتجنب طول الوقت ان ألتقى بضحى . وكانت هى أيضا نشطة ، تحمل أوراقا طول الوقت وتذهب الى ديوان الوزارة وتبقى أما أنا فاعتدت بعد التوقيع بالحضور الى المكتب فى الصباح أن أخرج وأجلس معظم الوقت فى احد المقاهى القريبة فى باب اللوق . كنت قد كففت عن القراءة فبدأت أمارس عادة يمارسها الآلاف : أجلس على رصيف المقهى ، وأحدق فى المارة . أحيانا أيضا أحدق فى الفراغ الى أن يحين موعد الانصراف من العمل فأعود لأوقع من جديد ، وبعد الظهر أرجع للمقهى . وبالتدريج أصبح لى بعض المعارف هناك . نلعب الطاولة أحيانا أو نثرثر بالساعات ، واكتشفت عالما هائلا كان غائبا عنى ، عالما من اللاشىء . وفى هذا العالم كانت

ضحى بعيدة جدا ، طيفا يظهر أحيانا على حافة القبر . من بين من تعرفت عليهم في المقهى شخص اسمه الدكتور ، لايعرف الا بهذا الاسم . وكان انيقا يلبس دائما قمصانا حريرية بيضاء ، ونظارة مذهبة الاطار وازرارا مذهبة في كمى القميص . وقيل لى أنه كان بالفعل طالبا في كلية الطب ، ضبط يوما يغش في الامتحان فطردوه من الكلية . قدم لى نفسه على أنه سمسار وحذرني آخرون من أنه قواد لكنى لم أهتم . كان جاهزا دائما للعب الطاولة وحديثه مسليا ولديه قصص لاتنتهى معظمها عن النساء . وذات مساء في المقهى حكيت للدكتور حكاية صديق لى أحب امرأة مخطوبة لشخص آخر وأحبته تلك المرأة وأعطته نفسها ، قالت المرأة أنها أرغمت على تلك الخطوبة ، ووعدت أن تفسخها ولكنها فجأة تركت صديقى ورجعت الى خطيبها . وصديقى حائر لأنه لايعرف لماذا أعطته نفسها ولا لماذا تركته ورجعت الى خطيبها .

استمع « الدكتور » بلا اهتمام لهذه الحكاية ثم قال وهو يبتسم ويرجل شعره الاشيب باصابعه : سمعت كثيرا من أمثال هذه القصص . النساء ألغاز لمن لايعرفهن وفى منتهى البساطة لمن يعرف حقيقتهن . يعتقد الرجال أنهم وحدهم هم الذين يتمنون امتلاك أكثر من واحدة . الحقيقة أيضا يا صاحبى أن كل امرأة تتمنى لو امتلكت كل الرجال ، لولا أنه يمنعها من ذلك اشياء . فسألته باستنكار ، وماذا عن الحب يادكتور ؟ ضحك ضحكة مشمئزة ووضع يدا فى جيب بنطلونه ثم خبط على جيبه بيده الأخرى وقال الحب هو هذا ، وازاح يده قليلا ثم خبطها مرة أخرى وقال وهذا . لزمت الصمت وانا أقول لنفسى هذا عقل قواد حقيقى . وشردت بذهنى بعيدا وهو يحكى قصة عن امراة كان يعرفها تركت رجلها بعد عشرة ثلاثين عاما لأنه فقد هذا وهذا . رغم ذلك رحت أفكر ، أيمكن أن يكون هذا سببا ؟ ضحى تعرف من الأصل أننى لاأملك شيئا ، وفى الحب كانت تبدو سعيدة . كانت تصرخ أنها سعيدة ، ولكن هل كانت صادقة ؟ ..

وانتهيت الى الدكتور يقترح أن نلعب الطاولة ، وكنا عادة نتبادل كسب وخسارة قروشنا القليلة . ولكن فى تلك الليلة حدث شىء نادر يعرفه كل من يلعبون . كنت أكسب باستمرار . آمر النرد بصوت عال ستة واحد ، فتأتى الستة واحد ، « دبش » فيكون « الدبش » .. كنت ببساطة لا أستطيع أن أخسر ، واستفز هذا الحظ الدكتور فأخذ يلعب ويلعب وعصبيته تزداد حتى

خسر كل نقوده . فقال وعيناه تبرقان تلعب على كل مامعك ؟ قلت وأنا أضحك مقابل ماذا ؟ فقال وهو يثبت على نظرته الحانقة مقابل أجمل امرأة رأيتها فى حياتك ، قلت ألعب .

ولما خسر الدكتور هذه المرة أيضا أغلق الطاولة بعنف ، وقال بوجه غاضب هيا بنا لكنك ستدفع أجرة التاكسى ، وتعطى المرأة حسنة .

ومضى التاكسى ناحية القلعة وبعدها أخذ الدكتور يوجهه الى شوارع ضيقة على جانبيها شواهد قبور فهمست له وأنا أضحك جئت بى لامرأة أو لتدفننى ؟ فقال كله واحد . ثم عاد التاكسى يخترق مرة أخرى طرقا مرصوفة وسط بيوت صغيرة وفقيرة من طابقين أو ثلاثة طوابق ، وفى ميدان صغير نزلنا ومشينا على أقدامنا من شارع ضيق الى شارع أضيق ثم دخلنا واحدا من هذه البيوت ، وفى الدور الأول ، نقر الدكتور على زجاج الباب بطريقة معينة .. ففتحت امرأة الباب . وكانت جميلة جدا كما قال الدكتور ، جميلة الوجه وجميلة الجسم ، ولكنها حين فتحت الباب كانت تعصب رأسها بمنديل ويلمع عرق النعاس فى جبينها ووجهها المدور المحتقن ، وقالت بصوت متعب تفضلا . ادخلتنى غرفة فيها كنبة بلدية تتوسطها وسادتان وعلى جانبى الكنبة مقعدان قديمان . ولما جلست وصلت الى أنفى من مكان ما رائحة الفسيخ التى لاتخطئها الأنف . ثم خرجت هى والدكتور ودخلا الى غرفة اخرى وسمعتها تقول من هناك بلهجة شاكية قلت لك يادكتور تأتى بهم مبكرا حتى تكون الواحدة مستعدة . قلت لك قبل العشاء لافى نصف الليل . كنت نعسانة ، هل يرضيك ؟ .. وسمعت الدكتور يقول اخرسى ياامرأة يانحس ، انا خسرتك فى الطاولة ولن أرى فيك أبيض ولا أحمر . خلصينا بسرعة ، أنا منتظر فى التاكسى فى الميدان . وسمعت الدكتور يخرج والباب يغلق . وبعد قليل دخلت هى وكانت قد غسلت وجهها وخلعت منديل الرأس فانسدل شعرها الكستنائى الناعم على كتفيها العاريين الابيضين وصدرها البارز . جاءت تلبس قميصا قصيرا أحمر من حرير صناعى يعلو ركبتها وقد صبغت شفتيها بسرعة فظلت جوانبهما بلا طلاء ورسم الأحمر دائرة غير مستوية على فمها وتحت انفها الدقيق المستقيم . جلست الى جوارى على الكنبة وبيننا الوسادتان وثنت ساقا تحت الأخرى وقالت ياأهلا وسهلا احضر العشاء ؟ قلت شكرا ، فقالت شبعان ؟ كانت تميل على وكتفها الأبيض المدور يلمع تحت أنفي ، وقد

تهدلت من عليه حمالة القميص فاقتربت منها وأمسكت هى بيدى وهى تكرر مسبلة العينين : شبعان أو تحب أن تأكلنى ؟ ولكنها فجأة وهى تقول ذلك تثاءبت بصوت مسموع وفجأة شممت مع بخر الفم النعسان رائحة الفسيخ النفاذة مخلوطة برائحة النعناع ومددت يدى الى جيبى وهممت أن أعطيها الحسنة ، وأن اخرج للدكتور المنتظر فى التاكسى فى الميدان ، ولكنها وضعت يدها على فمها وقالت بصوت طفلى وكأنها ستبكى : يقطعنى ، سامحنى ، كنت نعسانة . حقك على . فمددت يدى الى كتفها المصقول قبلت فمها وفسيخها ونعناعها وقلت ليكن ليكن ليكن . وقالت هى هنا ؟ قلت أنا أزيح الوسادتين نعم هنا . وكانت هى تلهث وكانت تضحك ضحكات متقطعة وهى تقول يخرب بيتك . هل تأكل فى آخر زادك ؟ لماذا لم تأت من أول العشاء ؟ فضاعفت لها الحسنة .

وبدا فى تلك الايام أن الحياة يمكن ان تستمر هكذا .. استرددت كل ما فقدت من وزنى وأكثر بكثير . انتهت الحمى ولم تبق سوى بثور لايراها احد سكنت الموسيقى وأصبحت الحياة نشيجا ممتدا لاصوت له يكاد يكون مريحا ولذيذا . ايقاعه دقات النرد وأقراص الطاولة . صلصلة الأكواب والأطباق . فتح الأبواب وغلق الابواب . خرير المياه من الصنابير .. الخبط على الأكتاف واهلا . القهقهات والهمسات . اغماءة طويلة تتابع فيها اليقظة فى النهار والنوم فى الليل . وأحيانا ، فجأة ، وسط تلك الاغماءة يدق طبل العرس القديم ، كأنه صدى الطبل ، مرة واحدة قويا ومفاجئا . تأتى ضحى دون انتظار . تطل من بين سطور كتاب أو من عطر امرأة اخرى ، أتشبث بها ، ولكن الصدى يموت فجأة كما بدأ ، يرجع صمت الحياة من جديد .

حتى زواج سميرة مر فى تلك الاثناء دون أن يترك أثرا فى نفسى ، وأن أحدث تغييرا فى حياتى . تقدم زميلى وقريبى عبد المجيد يطلب يد الآنسة شقيقتى لأنه يشرفه أن يناسب عميد العائلة فى القاهرة . فأوشكت أن أرفضه على الفور ولكننى قلت له هذا متروك لشقيقتى . حدثت سميرة عنه بغير حماس فطلبت أن تراه ، ولما رأته قالت أنها لاتمانع فى الزواج منه . وفعل عبد المجيد كل مايجب ، قدم شبكة ومهرا ، ودفعت انا كل مدخراتى من أيام المنحة لكى أشترى لسميرة أثاثا جديدا ، حدد عبد المجيد مواصفاته وأخذ يتابعه قطعة قطعة . ولم تكف المدخرات فاقترضت من

البنك بضمان مرتبى . ولكن لما انتهى صنع الأثاث وتم كتب الكتاب ، قالت سميرة أن عبد المجيد لايجد سكنا ويستأذن أن يبقى معنا فى الشقة بعد الزواج الى أن يفرجها ربنا . وكان لابد أن أوافق من أجل سميرة . كدسنا الاثاث القديم فى احدى الغرف ، وازدحمت ببعضه غرفتى ، وتركت لهما البيت فى معظم الوقت ، مقيما فى المقهى مع الدكتور والطاولة .

ولكن لماذا وقد ترهل جسمى وتسربت روحى بعيدا ثرت كل هذه الثورة ؟.. لماذا أخذت يومها أدق مكتب حاتم ، وأنا أدمدم بأصوات لامعنى لها لاتريد الكلمات أن تتشكل الى أن خرجت منى أخيرا الصرخة ماذا فعلت ؟ ولم أنتبه الا عندما قال لى حاتم بتلك النظرة الضارعة بصوت خافت ويائس أقبل يدك ، ليس هنا . ليس فى المكتب .. لا تضيعنى فوقفت مشلولا وصامتا الى أن وجدت الباب فاندفعت خارجا من مكتبه . سرت طويلا فى الشوارع . كنت على مايظهر أكلم نفسى لأن بعضهم نظر الى فى الطريق باستغراب لكنى لم أهتم . قلت ربما كان حاتم صادقا . ربما خدعنى بصرى . ربما كان بالفعل يهمس فى أذن ضحى . ولكن عندما فتحت باب مكتبه فجأة كان يميل على خدها ويقبلها أليس كذلك ؟ ولما رآنى تظاهر أنه يهمس فى أذنها . لم يكن يهمس فى أذنها ولكنه كان يقبلها . كان يهمس فى اذنيها أو كان يقبلها ماشأنى أنا ؟ .. نحن انتهينا ، الا تفهم ؟.. ظهر شبح واختفى فما أهمية ذلك ؟.. نحن نلعب الطاولة . نحن نصادق الدكتور ونذهب الى نسوة فى المقابر . نحن حفظنا أسماء الزهور ثم نسيناها وليس فى جيبنا شىء . وماذا عن ايسيت التى فى طيبة ؟.. فى المعبد الذى على يدك اليمنى بعد المدخل ؟.. التى تزوجت أخاها اوسير وولدت صقرا ؟.. التى تلبس أحيانا ثوبا من الريش ؟.. تلك ذات الشعر الأسود والعينين المكحولتين ؟ التى تركب أحيانا زورقا يعبر السماء مع أبيها رع ؟.. هل تساعدنى لو ذهبت الى هناك ؟ لو ذهبت الى اين ؟.. ماذا كنت أريد أن أقول ؟.. ولما سرت فى الطرقات طويلا ، ولما وجدت نفسى مرة أخرى أمام باب مكتبى صعدت ، وهناك وجدتها تجلس وراء مكتبها . ماذا رأت فى وجهى ؟.. نهضت معتمدة بيديها الى المكتب وتطلعت الى بعينى طير جارح ، وقالت ، كالسيف ، دون أن ترفع صوتها « ولا كلمة » . فقلت بضحكة غريبة سترين .

ونزلت من المكتب . قال لى شكرى فى التليفون منزعجا هل حدث شىء لضحى ؟ قلت لا . تستطيع ان تطمئن . ايسيت بخير . قال من ؟ فقلت تستطيع أن تطمئن عليهابالتليفون لو أردت . ولكنى أريدك لشىء آخر نعم . عاجل جدا . هل نتقابل فى لاباس ؟..

سكت شكرى قليلا ، ثم قال أذن أرجوك أن تخبر المدام عن هذا الشىء العاجل وستبلغه هى لى . فقلت باندفاع أريد أن أحدثك عن شىء حدث فى روما . شىء يهمك .. فسكت مرة أخرى ثم قال من جديد أرجوك أن تخبر المدام وستبلغنى ماتريد . فقلت مع السلامة وألقيت بالسماعة .

فى اليوم التالى ذهبت الى المكتب متأخرا كالعادة وجدت ضحى هناك وكل ادراج مكتبها مفتوحة . وكان الى جوارها ساع يحمل الملفات والأوراق التى تخرجها من الادراج . ردت ضحى تحية الصباح بلهجة عابرة دون أن تنظر نحوى ، ولكنها قالت أرجو أن يأتيك مكانى زميل أو زميلة أفضل منى .

فقلت لماذا ؟ وأين تذهبين أنت ؟

فقالت بنفس الطريقة العابرة : أنا نقلت من هنا .

ومدت لى يدها بورقة مطبوعة . كانت منشورا اداريا قرأت فيه بعد الديباجة واسمها الثلاثى « أولا : تنقل .. « مديرة لمكتب وكيل اول الوزارة ».

كان الساعى قد خرج ولكن ضحى ظلت واقفة تنظر الى بهدوء ثم قالت مامعنى ذلك الذى فعلته ؟ متى ستعرف اننا انتهينا .. نهائيا ؟

ثم استدارت بسرعة وخرجت من المكتب .. انتهت من ذلك المكتب ، ومنى الى الابد .

- ١٦ -

في تلك الاثناء كانت الامور تتطور في البيت .
فبعد أن تزوجت سميرة من عبد المجيد بدأت تهتم معه بالاشتراكية ، والاتحاد الاشتراكي .. انضمت الى مكان يسمى بلجنة العشرين في المصلحة التي تعمل بها وبدأت تتناثر في البيت عبارات التصعيد التنظيمي .. ونقطة نظام .. والعناصر السلبية ، وكان عبد المجيد بعد شهور من الزواج قد كف عن تسميتي عميد الأسرة والبلد وصنفني في خانة العناصر السلبية ، في مزاح خفيف اولا ثم كلقب اعتمده لي بصفته اشتراكيا .

ورجع ايامها من الحجاز الحاج سيد القناوي . وكانت تجري في الوزارة انتخابات جديدة واراد أن يقنعني بدخول هذه الانتخابات على « قائمته».. فقلت له مازحا اذا اردت ياحاج سيد ان تضمن سقوط هذه القائمة فضع اسمي فيها . ولما بدأ يلح ويأتي الى مكتبي كل يوم لهذا الغرض قلت له بصورة حاسمة أسمع ياحاج . لاأريد ان تكون لي اى علاقة بهذه المسألة . ضع اسم حاتم على القائمة . فقال لي الاستاذ حاتم على رأس القائمة . وعندما رشحت اسمك قال انه يتمنى لو تكون معنا . وأدهشني ذلك قليلا . كانت علاقتي بحاتم مقطوعة تقريبا منذ اليوم الذي شاهدته فيه يقبل ضحى . لم أعد للحديث عن ذلك الموضوع ولا هو أيضا تحدث عنه . وحين كنا نلتقي بالصدفة في ممرات الوزارة نحيي أحدنا الآخر بحرارة على أساس أننا نفس الصديقين القديمين وعلى أساس أن شيئا لم يحدث .

وقال سيد وهو يتطلع الى بعينيه السوداوين الغائرتين أذن قل لي ، لماذا لا تريد أن ترشح نفسك ؟ ان كان ذلك خطأ ، فلن أرشح نفسي أيضا . أرجوك أن تشرح لي . فقلت ياحاج سيد هذه الانتخابات للجنة قيادية ، يعني من يرشح نفسه لها ويريد أن يقود الناس .. ومن يريد أن يقود لابد أن يفهم . فاذا كنت أنا شخصيا لاأفهم ، فكيف تريد مني أن اقود غيري ؟ قال سيد وهو يضحك يعني أنا الذي أفهم ياأستاذ ؟ قلت

بتأكيد نعم ياسيد . أنت تفهم ، وحاتم يفهم .. أما أنا ، فأنا من العناصر السلبية كما يسمنى نسيبى الاستاذ عبد المجيد .

غامت عينا سيد عند ذكر اسم عبد المجيد وقال هل تعرف أنه رشح نفسه على قائمة وكيل أول وزارة ؟

فقلت نعم ، أعرف .

قال سيد وكيل أول الوزارة هذا .... سلطان بك ، هو أس الفساد فى الوزارة ، كل السرقات والبلاوى تمر من طريقه . هل تعرف أن عمال الوزارة يبنون له فيلا ، وأن ساعات عملهم هناك تحسب لهم ساعات اضافية فى العمل من ميزانية الوزارة ؟... هل تعرف ..

قلت بصبر نافد - لاأعرف ياحاج سيد ولاأريد أن أعرف . هذا لايخصنى فى شىء .

قام سيد وقال بأسف .. كنت أتمنى أن أقنعك ياأستاذ . أنت مكسب لنا ..

فقلت وأنا أقوم ومن بالضبط أنتم ؟

قال القائمة .. القائمة التى ضد الفساد ..

فضحكت وأنا أقول أنت تقدرنى بأكثر مما استحق ياحاج سيد ، ولكنى أدعو لك بالنجاح .

ولما ظهرت نتيجة تلك الانتخابات نجح الحاج سيد وحاتم بالفعل وستة أو سبعة من قائمتهم ولكن معظم الناجحين من قائمة وكيل أول الوزارة ومن بينهم عبد المجيد .

كثرت مشاحناتنا فى البيت . كان يحاسب سميرة بالمليم على كل طبخة تعدها وفى كل ليلة يمسك ورقة وقلما ويجرى حسابات ويقسم المبلغ على ثلاثة ويذكر للفاكهة التى اشتراها بالأمس والليمون الذى اشتراه بعد صلاة الجمعة ويجمع ويطرح ثم يرينى النتيجة فأقول له أننى لاأريد أن أعرف ، وأنى أصدقه . ولكنه فى أول الشهر يخرج هذه الأوراق ويقول أننى مدين له بعدة جنيهات فأدفعها له دون مناقشة . وأخيرا ، لكى أتخلص من ذلك قلت أننى لن آكل أية وجبة فى البيت فقال باشمئزاز أحسن ، أصرف على المطاعم أفضل من أن تصرف على أختك كن سلبيا كعادتك .. وسكت . كنت أتحاشى الشجار معه من أجل سميرة التى كانت شديدة التعلق به . تترك له تصريف كل شىء وتعتبر كل كلماته وتصرفاته قدوة تحتذى . ولم أعد أرجع للبيت الا لكى أنام .

كنت أقيم فى المقهى طوال الوقت ، انتقلت من الطاولة الى الشطرنج وكان ذلك يقضى على الوقت بطريقة ممتازة ، لايتيح حتى الفرصة للتفكير فى الأكل . نقضم السندوتشات ويتتابع الشاى والقهوة ونحن نحدق صامتين فى الرقعة سواء كنا نلعب أو نراقب الاخرين يلعبون ، فتمر بهذه الطريقة عشر ساعات . وفى الليل ، فى الفراش ، كنت أؤنب نفسى لأنه فاتتنى نقلة حصان ممتازة فى أحد الأدوار أو أبتسم فى سرى بسبب سذاجة نقلات لاعب آخر يقع بسهولة فى الفخاخ حين تعطيه قطعة يكسبها ، ثم أضع وأنا اروح فى النعاس خططاً جديدة لافتتاحيات الأدوار فى الغد .. وتحول عقلى الى مربعات سوداء ، وبيضاء تتحرك فوقها البيادق ، والخيول ، والافيال .

أحيانا كان الحاج سيد القناوى يأتى ليودعنى لأنه مسافر مع وفد اشتراكى الى بلد اوربى أو آسيوى ويسألنى عما أريد فأطلب منه كتبا للشطرنج . نادرا ما كنت أقرأ شيئا آخر .

وكان سيد قد اعتاد أن يأتى الى مكتبى كثيرا ليشكو لى من افعال سلطان بك وكيل أول الوزارة ، وفريق الاختلاسات ، والسرقات الذى يتحرك تحت حمايته ، فأكتفى بالاستماع اليه . ومرة قلت له يبدو ياسيد أنك مهم جدا فى الاتحاد الاشتراكى بدليل هذه الاسفار للخارج ، فلماذا لاتقول لهم فى الاتحاد اشتراكى عن أفعال وكيل أول الوزارة ليتصرفوا معه بدلا من أن تحكيها لى ؟ فقال سيد وهو يضحك هذا ياأستاذ لأنه هو شخصيا فى الاتحاد الاشتراكى أهم منى بكثير . سلطان بك من القيادات التى فوق وأخذ يلوح بيده الى أعلى .

ومع ذلك فقد شعرت أن سيد القناوى أهم مما يتظاهر . كان قد بدأ ينتشر حديث عن شىء اسمه التنظيم السرى فى داخل الاتحاد الاشتراكى واعتقدت أن سيد لابد أن يكون عضوا فى ذلك التنظيم ، ولكننى لم أسأله ولم يتطوع هو بأن يقولى لى شيئا .

وعلى الرغم من أننى لم أظهر أى اهتمام بأحاديث سيد عن الفساد فى الوزارة وعن الوكيل الأول فقد جعلنى الى حد مستشاره فى مشاكل اللجنة القيادية . وبدأ يشكو لى من أن قائمته نفسها ، بمن فيها حاتم ، بدأت تجامل سلطان بك وتسكت عن الفساد فى الوزارة .

كنت وحيدا فى المكتب بعد أن انتقلت منه ضحى ولم يأت من يحل محلها واضمحلت مراقبة التنظيم والادارة فلم يعد فيها غير اثنين أو ثلاثة من الموظفين المغضوب عليهم والذين لايسأل أحد عن مواعيد حضورهم او انصرافهم . واصبحت أنا ، بشكل ما ، رئيسا للمكتب باعتبارى أقدم موظفيه . وفى احدى المرات جاء سيد الى مكتبى قرب الواحدة ظهرا كعادته وكان وجهه مكفهرا جلس قبالتى صامتا فقلت له ما الحكاية هذه المرة ؟.. شىء جديد عن سلطان بك ؟

فقال شاردا الى حد ما نعم ، اكتشفت شيئا مهما جدا ، ولكننى أنتظر حتى أمسك بالدليل ..

ثم فجأة قال مندفعا يريدون أن يخربوا بيتى ياأستاذ ..

وخفض من صوته قليلا وهو ينظر الى الباب وقال اليوم قابلت الاستاذ حاتم فقال لى أنتبه ياسيد .. يروجون فى المصلحة انك يسارى .. هززت كتفى وقلت أنت الذى اخترت هذا الطريق ياسيد فلا داعى للشكوى ..

قال سيد بشىء من الحيرة ولكن ألا يقول الرئيس فى كل خطبة أننا يجب ان نحارب الفساد ؟.. أن هذا البلد بلدنا ولو تركنا البكوات يخربونه فسيقع على رءوسنا ؟.. أنا اعرف كل شىء . أعرف كل ما يفعله سلطان بك والهانم التى كانت تجلس معك هنا .. الرشاوى التى تقبضها ، النسبة التى تأخذها والنسبة التى تعطيها لسلطان بك .. الشيكات المزورة .. وبدلات الاجتماعات الوهمية .. فاذا تحدثت عن ذلك يكونون هم الابرياء وأنا فى النهاية يسارى ؟.. ثم سكت فجأة ، وقد تذكر شيئا وقال وبالمناسبة والله أنا لا أعرف معنى هذه الكلمة ، اسمعها أحيانا فى الخطب ، واحيانا يقولونها فى اللجنة القيادية ولكنى لاأعرف بالضبط مامعنى كلمة يسارى . هل هى شىء سيىء جدا ؟

فكرت قليلا ثم قلت يسارى فى بلاد الدنيا لها معنى غير عندنا . عندنا يسارى يعنى تقريبا شيوعى .

قال سيد يانهار اسود .

وامتقع وجهه .

قلت لهذا السبب كان الاستاذ حاتم على حق حين حذرك . قال سيد والله العظيم ياأستاذ حين ذهبنا الى المانيا الشرقية كانت رجلى على رجل وكيل الوزارة . أنا لا أعرف لغات ولم أكلم أحدا .. قلت فى شىء من الحزن لماذا

تقول لى ذلك ياسيد ؟ هل أنا أتهمك بشىء ؟.. أنا فقط أنبهك كما نبهك حاتم . أنت لست أقوى من سلطان بك . اعترفت لى بنفسك أن نفوذه قوى حتى فى الاتحاد الاشتراكى ..

ولكن سيد ظل متجهما . لم يكن يستمع الى ولكنه كان يفكر فى شىء آخر ، وفى النهاية قال بصوت خافت كأنه لايكلمنى : ذلك أيضا ماكانوا يفعلونه فى اليمن .. كان رجال الامام يقولون للفلاحين لا تصلوا مع المصريين فى الجامع لأنهم كفرة .. المصريون اشتراكيون والاشتراكيون كفرة وصدقهم كثير من الناس وتركوا لنا المسجد ..

ثم قال سيد بغضب مكتوم دون أن يرفع صوته .. ولكن ولو أنا رأيت الموت بعينى فى اليمن وتلوت الشهادتين . رأيت رجلى تطير وكان يمكن أن تكون رأسى ، وعشت أياما بين الحياة والموت . فهل سأكون الآن جبانا لأنهم ..

واختنق صوته ولم يكمل . قام مندفعا ليخرج ولكنه توقف فجأة عند باب المكتب وقال بلهجة مختلفة ، تكاد تكون حزينة :

ـ على العموم لم يكن هذا ما جئت لك من أجله . هناك شىء مهم كدت أنساه .. حاولت أن أقول بنفسى للاستاذ حاتم ولكننى لم أستطيع ، أنت صديقه من زمن ويمكن أن تقول له ذلك أحسن منى .

ظللت أنظر له لكى يكمل لكنه سكت ثم قال بعد شىء من التردد :

ـ قل للاستاذ حاتم الا يذهب ليلعب القمار فى بيت مدام ضحى .. البوليس يعرف أنها تدير بيتها للقمار ويراقب البيت .

وخرج سيد بسرعة قبل أن يرد على سؤالى : وكيف عرفت ياسيد ؟ ولعلى لم انطق هذا السؤال .

ولم تكن تلك هى أول مرة يذكرك فيها سيد ياضحى .. كنت أستمع من قبل الى حديثه عنك وعن أعمالك فى ذلك المكتب الجديد مع سلطان بك بشىء من اللامبالاة ، ربما بشىء من التشفى . أقول حسنا أنها تسقط الى هذا الحد . لم تكن طيبة فى أى يوم . لم تكن أيسيت فى أى وقت . أحببتها يوما ، وكما يفعل كل محب تصورت أنها افضل بكثير مما هى فى الحقيقة . رفعتها فوق غيرها من النساء وهى لاتفضلهن فى شىء . تصورتها عالية ، مجللة بالافكار والأشعار ، عبقة بالزهر والسحر . وها هى أدنى حتى من الاخريات .. أظل أكرر ذلك لنفسى . أعتقد أننى اقتنعت أن كل شىء قد مات . أقول لنفسى كل شىء بالفعل قد مات . تمر الايام لا أذكرك . نادرا مايزورنى وجهك . ولكن ما هو بالضبط ذلك المرض ؟.. ذلك الذى لا يشفيه كل النسيان وكل الشطرنج وكل دوران الساعات وكل امرأة غيرك وكل دكتور وكل حاتم وكل سيد وكل كلام فى السياسة وكل كلام فى الفساد وكل كلام فى الماضى وكل كلام فى المستقبل ؟ لماذا يبتعد ذلك الجناح حتى يصبح نقطة فى فضاء السماء ثم يختفى واذا به فجأة ينقض على .. يخفق فوق رأسى . أرى ظله الهائل الأسود يمتد فيحجب كل شمس وكل صوت ثم يقبضنى فيطوينى وسط ريشة الناعم الجارح بعيدا عن الصوت وبعيدا عن الصمت وبعيدا عن البشر الى حيث الحب وحيث اليأس وحيث المحيا وحيث الممات وحيث وجهك أنـت ؟.. وما الذى كنت أريده وأنا أجرى يومها ، أخطف درجات السلم الى مكتبك ؟.. هل كنت حقا أريد أن أنقذك أم أنقذ نفسى ؟

ولم تكونى . كنت ضحى أخرى . جميلة ماتزال ، ولكنها تهتم بصبغ شفتيها وبطلاء أظافرها . ضحى نحيلة الحاجبين الآن ، قاسية العينين الآن ، تمتد أناملها الطويلة المصبوغة الاظافر فوق المكتب الضخم ومن خلفها الباب المبطن بالجلد يعلوه المصباح الأحمر ومن حول مكتبك يقف الموظفون يمدون أوراقا مترددين وهم ينحنون قليلا ولكن أجسامهم متخشبة مع ذلك . يقولون لك ياأفندم . وأنت تتطلعين اليهم بعينيك

السوداوين بنظرة هادئة ولكنها آمرة ومسيطرة . وحين يقع بصرك على تنظرين الى باستراابة . يصبح وجهك قاسيا فجأة . تخشين فضيحة ما ، خطر ما ، تقولين لى بدورك أفندم ؟ فأقول ، أتلعثم ، أريدك فى شيء مهم. ولم أكن قد جئت الى مكتبك من قبل فيزداد احساسك بالخطر وتصرفين الموظفين المحيطين بمكتبك بطريقة لا مبالية ، بحركة بسيطة من يدك ، أرجعوا فيما بعد . وحين يخرجون جميعا تتطلعين الى بهاتين العينين الزجاجيتين الخاليتين من كل تعبير وانت تشبكين يديك فوق المكتب وتكررين أفندم ؟.. وأعرف أن تلك القسوة وراءها أيضا خوف ، وأكاد أبتسم ، أكاد أقول لك ضحى لاداعى لكل ذلك . انت لاتستطيعين الآن اهانتى باكثر مما أهنتنى من قبل . أكاد أقول لك ضحى وحتى لو نظرت الى بهذه القسوة وصبغت أظافرك وزججت حاجبيك وجلست أمام مكتب مبطن بالجلد يخفى وراءه لصا وأنت شريكته فأنا أحبك . أنا لا أراك الآن بشفتيك المصبوغة وشعرك المهندم وأظافرك الطويلة الجارحة . ولكنك تأتين لى دائما وسط غيمة ومطر . أرى فوق خدك قطرات الماء المدورة كندى الفجر وأشم فى شعرك رائحة المطر البكر ومع صوتك يبحر شراع حنينى الى غناء الكاهنات فى المعبد والحوريات فى البحر . لكم أحبك . كونى ماشئت فسوف أظل أراك فى الغيمة والمطر . حتى وأنت تكررين للمرة الثالثة فيما يشبه الغضب أفندم ؟.. ومع ذلك يحتبس صوتى . لاتخرج الكلمات وأنت تجلسين هناك تتطلعين بذلك الغضب المكتوم والخوف المكتوم فأسحب ورقة من فوق مكتبك وأخط عليها بيد ترتعش « عرفت أن الشرطة تراقب بيتك . لاداعى للقمار الآن » . وأقرب الورقة من وجهك ، فتنظرين اليها دون فهم أولا ، ثم أراك تقرئينها بدهشة ، ثم يشحب وجهك وتمدين يدك لتأخذى تلك الورقة ولكنى أدسها فى جيبى وانصرف .

وأجدنى أسير دون وعى ، أصعد سلالم واخترق ممرات لكى اذهب الى حاتم وأقول له . غير أنى اقف فجأة ، وأتساءل .. ما أهمية ذلك مادمت قد قلت لضحى ؟

وأسأل نفسى وأنا فى تيه تلك الممرات المتقاطعة العالية السقف ذات النوافذ الكبيرة المتربة ألم أدفع كل الثمن بعد ياضحى ؟ خنت السر وخنت العدل وخنت نفسى فأى ثمن آخر لأدفعه ؟

أى قربان آخر ، يا ايسيت ؟

- ١٨ -

في الصباح التالى كان حاتم هو الذى جاء الى مكتبى . كنت جالسا الى مكتبى أقرأ شيئا ما فرأيته عند باب المكتب . تطلعت اليه دون أن أتكلم وظل هو أيضا يقف هناك وينظر الى صامتا ، وأخيرا أغلق باب المكتب وتقدم منى فنهضت ومددت يدى اليه وتصافحنا بامتداد ذراعينا وبيننا المكتب . ولكن فجأة لمعت دموع فى عينى حاتم فتقدم منى وجذبنى اليه ثم عانقنى بقوة وابتعد قليلا وهو يمسك بذراعى ويقول ألا تعرفنى ؟.. أنا حاتم .. أنا صديقك .

قلت أنا وكان صوتى مرتعشا قليلا أرجوك أن تجلس ياحاتم .. نحن .. نحن لم نتعود على الكلام بهذه الطريقة ..

فجلس وهو يقول معك حق . انتظرت طويلا أن تأتى لتعاتبنى ونصفى تلك المسألة . حاولت أنا أيضاً أن أكلمك وأن أصفيها ولكن كان خجل يمنعنى . شعور بأننى خنتك بطريقا ما ...

ومرة أخرى قلت بصوت متوتر أرجوك ياحاتم ، لاداعى لهذا الكلام .

- ولكنى أريدك أن تعرف الحقيقة ..

- لا أريد أن أسمعها .

فهز رأسه ولزم الصمت قليلا قبل أن يقول اليوم زارنى الحاج سيد القناوى .. كان يعتقد أنك قلت لى شيئا ..

- وهل وصلتك الرسالة ؟

- نعم ، ولكنى كنت أتمنى أن تأتى منك أنت .

ثم مسح بيده على شعره الذى بدأ فيه الشيب من الجانبين وقال على العموم ذلك انتهى . تلك الحمى انتهت .

ووجدتنى أضحك ضحكة طويلة متصلة وحاتم يتطلع الى باستغراب ويسألنى لماذا تضحك ؟ هكذا ؟

فقلت دون أن أكف عن الضحك - ذلك ما تأمل يا حاتم . ذلك ما تأمل ، ولكن تلك الحمى لاتنتهى بسهولة ، صدقنى أنا .

قال يبدو أننا نتكلم عن شيئين مختلفين . ثم ضرب المكتب بيده بعصبية

وقال ربما عن نفس الشيء ولكن ليس كما تظن . تلك الحمى التى أقصدها . دعنا من ذلك هل تعرف من دعانى الى بيتها أول مرة ؟ .. كان هو شكرى يوم قابلته فى المطار وأنا أنتظرك . لبيت دعوته فى الموعد الذى حدده وكنا نتسلى باللعب والحديث ولكن لم يكن هذا هو السبب . كنت أقاوم الاعتراف بأنها هى السبب . أقاوم الاعتراف بأننى لا أذهب الى هناك الا لكى أكون بالقرب منها ولكى أراها . ولم أكن أعرف أى شيء ينتظرنى . حاولت ولكنها رفضتنى . لم ترفضنى تماما ولكنها تركتنى معلقا بأمل . وفى ذلك اليوم فى المكتب ، نعم ، كنت أحاول معها ، ولكنها مرة أخرى رفضتنى . وفى البيت ، عندها ، لم أعد ألعب وحدى مع شكرى ، كان آخرون يأتون ، يدعوهم هو ، أو ربما كانت تدعوهم هى ، لا أعرف ، وبدأت الدائرة تتسع ورأيت نفسى أسقط كل يوم . فى كل مساء أذهب الى بيتى شاعرا بأنى ضئيل وأقول لنفسى هذه هى الليلة الاخيرة . لن يتكرر ذلك بعد الآن . ولكن فى المساء التالى ، فى الموعد نفسه ، أينما كنت ، فى بيتى ، مع أولادى . فى المكتب مع أوراقى ، فى النادى ، فى المقهى ، أينما كنت ، يظهر وجهها ويهمس نداء فاجد نفسى هناك ، منكفئا مع اللاعبين على الورق ، ولكن لا أرقام فى تلك الاوراق التى فى يدى ، بل وجهها ، لا أحد يجلس ، لا شكرى ولا أولئك المقامرون الذين يأتون كل يوم . لا أحد غيرها هى ، التى ترفضنى ، التى فهمت تماما ألا أمل لى معها ، ورغم ذلك ...

قلت بهدوء ، بلهجة مواسية ورغم ذلك فسوف تستمر يا حاتم .

قال باشارة قاطعة لا ، صدقنى ذلك كله انتهى . اليوم حين كان سيد القناوى يكلمنى استمعت اليه دون أن أرد بكلمة . قاومت دموعه أمامه . لم يكن هو خوف الفضيحة أو أى شيء من هذا النوع . ولكنى فكرت فيك وفكرت فى نفسى وفى أحلامنا القديمة . تصورت أن ينتهى كل شيء هكذا على مائدة قمار .. وقال لى شيء فى داخلى أن كل ذلك قد انتهى .

قلت باللهجة نفسها أتمنى ذلك يا حاتم ولكن سنرى .

نظر الى بدهشة وسألنى لاتصدقنى ؟

قلت أصدقك تماما . أصدق كل كلمة وكل حرف ، ولكن ليست هذه المسألة . سنرى .

فقال بغضب تقريبا وهو ينهض لاتجدد شكى أرجوك . جئت لاعتذر اليك ، فأرجوك أن تساعدنى . فقمت من مكانى وتوجهت اليه . قلت أنا الذى خنتك ذات يوم فسامحنى . لاتسألنى كيف خنتك ولكن أرجوك أن تسامحنى . عانقته كما عانقنى عندما دخل . صعدت دموع الى عينى كما لمعت عيناه عندما دخل . ولكنى كنت أعرف فى قرارة نفسى أنه لا فائدة . أعرف اننا الآن معا ، ضئيلان فى طية ذلك الجناح .

وفى ذلك اليوم ، وفى الموعد المعتاد ، جاء سيد القناوى ، وكان على عكس عادته فى الايام الاخيرة مبتهجا ، متهللا ، يعرج بنشاط حتى وصل الى مكتبى فمال على وقال بسعادة ، صاحبك ، سلطان بك ، وقع . وصاحبتك ضحى هانم وقعت .

ثم جلس سيد القناوى ، على المقعد الذى كان يجلس عليه حاتم قبل قليل ، وبدأ يحكى . قال أنه كما حكى لى من قبل يعرف من زمن كل فساد ضحى : المبالغ التى تطلبها لتحرك أوراق الموظفين فى مكتب الوكيل ، ثمن كل توقيع لسلطان بك ، الهدايا المطلوبة لعضوية اللجان التى تصرف مكافآت لاعضائها ، المبلغ المطلوب للانتداب فى الداخل أو للسفر الى الخارج ، ما تقتسمه هى وسلطان بك مع المقاولين الذين يجرون ترميمات وهمية فى الوزارة ، كيف ترسو العطاءات على هذا وذاك ، المبانى التى تنشأ بأضعاف ثمنها والى أى جيوب يذهب الفرق .. كل ذلك يعرفه ولكن كان ينقصه الدليل . سلطان بك متمرس فى لعبة الاوراق ولا أحد يغلبه . هو يوجه ضحى وهى تنفذ . وهو قوى فى الوزارة ويضع كبار الموظفين بل واللجنة القيادية فى جيبه . مسنود من خارج الوزارة ولا يعرف كيف ولا من الذى يسنده . عندما اشتكاه للرقابة الادارية قالوا له يا حاج نعرف ذلك وأكثر . وكانوا هم الذين حدثوه عن وكر القمار فى بيت ضحى ، ويعلقون أملا على ضبطها ولكنهم سألوه أين الدليل ؟ قالوا نحن نتابع سلطان بك وضحى ولكن أين الدليل ؟ .. والآن وقع الدليل فى يده .

كان سيد يهمس منفعلا بكل ذلك وهو يتطلع الى الباب كل دقيقة وعندما وصل فى حديثه الى تلك النقطة قام وأغلق الباب بالمفتاح لكى يطمئن . قلت له ضاحكا ياحاج سيد لا أحد فى المكتب أنا هنا المدير والموظف والساعى . حتى الساعى لايظهر إلا نادرا . فقال ولو . عاد سيد الى

الجلوس أمامى وأخرج من جيبه ايصالات واستمارات حكومية دفعها الى ظافرا وقال أنظر . نظرت ولم أفهم . عرفت بالطبع خط ضحى . وكانت هناك عبارات : ايجار الاتوبيسات .. مشروبات الترفية .. غداء .. حفلة الترفية .. المبيت فى الفندق .. العشاء ..

وأمام كل عبارة رقم بالجنيهات .

قلت ماهذا ياحاج سيد ؟

فقال وهو يضحك هذه رحلة لعمال الوزارة الى بور سعيد ، تكلفت خمسة آلاف جنية بالتمام والكمال . أنظر ها هو المجموع ، وها هى استمارة الصرف من خزانة الوزارة . ضحى هانم ، كانت هى المشرفة على هذه الرحلة .

قلت وماذا فى ذلك ياحاج سيد .. اليس هذا من حق عمال الوزارة ؟ .. يوجد مبلغ مخصوص لذلك فى الميزانية على ما أظن .

قال نعم من حقهم ونعم يوجد مبلغ مخصوص . المشكلة الوحيدة أن هذه الرحلة لم تخرج أصلا . لم يذهب أى عامل الى بورسعيد . سألتهم واحدا واحدا ، هؤلاء المكتوبة اسماؤهم هنا . لم يذهب واحد منهم الى بورسعيد .

قلت كيف ؟

فكرر ورائى كيف

ثم قال وهو يضع الاوراق فى جيبه ستجيب الرقابة الادارية والنيابة على هذا السؤال .

قلت ولكن كيف حصلت أنت على هذه الاوراق ياحاج سيد ؟

فقال سيد وهو ينهض هناك ناس شرفاء فى كل مكتب فى الوزارة يا أستاذ . الحقيقة أن كل الناس شرفاء الا سلطان بك وضحى هانم وأمثالهم .

قلت ولكن هذه الاوراق كيف حصلت عليها ؟ .. هذا تجسس يا حاج سيد .

فانتفض واقفا وقال فى غضب هذه عصابة يا أستاذ . هذه سرقة . وضرب سيد على صدره وهو يقول هذا حقى وحق هؤلاء العمال الذين زوروا أسماءهم ، أليس كذلك ؟

لم أرد وظل سيد ينظر الى ثم قال وهو يسيطر على صوته على العموم الرقابة الادارية ستبحث والنيابة ستحقق فى الموضوع وستظهر الحقيقة . سأعطيهم الاوراق وعليهم الباقى ..

ثم مال مستندا على المكتب وقال ولكن لى عندك رجاء لاتقل هذا لأحد ..

ثم تردد قليلا قبل أن يقول ولا للاستاذ حاتم ..

فقلت وأنا أحول وجهى ، ليكن ..

وللمرة الاولى بدا على وجه سيد أنه لايثق فى . ظل ينحنى وهو يبتسم ابتسامة معتذرة ثم قال احلف .

نظرت له بدهشة ولكنه كان يثبت على نظره بابتسامته المعتذرة والمصممة مع ذلك ، وقال سامحنى ، أنت رأيت بنفسك ما يفعلون ، يقولون عنى يسارى ..

فابتسمت ولكنى حلفت .

وبعد ذلك بأيام حدثت أشياء فى البيت . وكنت أتفادى قدر استطاعتى رؤية عبد المجيد الذى أصبح منذ تعرف على وكيل أول الوزارة عضوا فى لجان كثيرة تصرف مكافآت ويدخل فى حديثه باستمرار عبارات عندما قابلت سعادة الوكيل أو كما قال لى سلطان بك فى مكتبه وهكذا . وكانت سميرة الآن حاملا فبدأ يتصرف على أساس أن ذلك يضيف نقطة الى رصيده فى البيت وينتظرنى حين أعود من الخارج لكى يتحدث عن المسئوليات وعن الناس الذين يبخلون على بيوتهم ويظلون طوال الوقت فى المطاعم والمقاهى . ولكن فى تلك الفترة بدأ لغة جديدة . فقد راح يغمز طول الوقت على العناصر اليسارية ويلمح الى علاقتى بسيد القناوى . ولا أدرى ماذا قال لسميرة ولكنها كانت تتجهم عندما يبدأ ذلك الحديث وتشيح بوجهها فى اشمئزاز . ومرة أثناء حديث من هذا النوع ساعة الافطار قالت فى غضب هذا اليسار سيهد الاتحاد الاشتراكى ويخرب البلد . فقلت لها بدهشة وما هو اليسار ياسميرة ؟ فقالت الذين يقلون أدبهم على رؤسائهم . عندنا منهم فى المصلحة أيضا .. اليسار هو ... وتطلعت الى عبد المجيد فى استفهام فقال بايجاز ، بلهجة واثقة ، العناصر الهدامة . وكررت سميرة العناصر الهدامة ، ثم تطلعت الى بنظرة لوم .

ولكن تعليقات عبد المجيد ازدادت عصبية بعد أن قدم سيد القناوى أوراقه للرقابة الادارية وبعد أن بدأت النيابة الادارية تحقق فى

الموضوع . كان أعوان سلطان بك يتنقلون بين المكاتب ويقولون ان سيد القناوى مدفوع من عناصر هدامة لاشاعة البلبلة فى الوزارة ، وأن تحقيقا يجرى مع سيد القناوى فى الاتحاد الاشتراكى لهذا السبب ولكن موقف سلطان بك سليم مائة فى المائة . وكان عبد المجيد نشطا فى ذلك بالطبع ، أما فى البيت فكان يقول بنبرة شاكية أننى أعرضه للخطر بسبب علاقتى بسيد القناوى وأننى أهدد مستقبله السياسى لان الكل يعلم أنه نسيبى . فقلت له فى احدى المرات يا سيد عبد المجيد فى ستين داهية مستقبلك السياسى . أعتقد انه لو ضاع مستقبلك السياسى فسيصبح مستقبل البلد أحسن . فالتفت الى سميرة وقال بلهجته المتشكية سامعة ؟ وقالت سميرة وهى تنظر الى بحدة بعيد الشر عن مستقبله .

وبينما يدور التحقيق استدعانى سلطان بك لمقابلته وذهبت الى مكتبه . أشارت ضحى بيدها الى أحد المقاعد وقالت تفضل انتظر ، ثم انهمكت فى أوراق أمامها . تعمدت أنا أيضا ألا انظر ناحيتها وحولت وجهى نحو النافذة . رأيت من بعيد العمارة البيضاء التى يقع فيها مكتبى ، ورأيت مبنى البورصة بنوافذه الخشبية نصف المغلقة كعيون نصف مغمضة .

وأخيرا دق جرس على مكتب ضحى فقالت لى مرة أخرى تفضل . ثم أشارت نحو الباب المبطن بالجلد وقالت أدخل .

وكانت حجرة مكتب سلطان بك واسعة ، لابد أن أمشى فيها طويلا قبل الوصول الى مكتبه . وكانت ستائر كثيفة مسدلة على النوافذ بينما يزن جهاز تكييف بوشوشة رتيبة وتتدلى فوق رأسه نجفة كبيرة مطفاة ولكن مكتبه تضيئه عدة (أباجورات) . لم يقل شيئا وأنا اتقدم نحوه وظل يفحص أوراقا فى يده ، وعندما وصلت أمام مكتبه لم يرفع رأسه ولم يوجه الى أية تحية أو يطلب الى الجلوس . لكننى وجدت كرسيا جلديا كبيرا أمام مكتبه فجلست عليه .

كان هو يجلس خلف مكتبه أحمر الوجه ، شعره الاشيب مرجل بعناية الى الخلف ويرفع يده بين لحظة وأخرى بحركة انيقة ليثبت على أرنبة انفه نظارته المذهبة . ولا أدرى لماذا ، ولكن بينما أنظر اليه تذكرت هتافا كنا نقوله فى احدى المظاهرات لنهاجم رئيس الديوان وعن طريقه الملك فاروق . كنا نقول يسقط عفيفى و « حافظ » عفيفى . ولما تذكرت ذلك ابتسمت .

لم يكن سلطان بك يشبه حافظ عفيفى على أية حال .
ولكنه أخيرا التفت الى وقال ألست أنت ..
وبدأ يقرأ اسمى من ورقة على مكتبه فقلت نعم .
قال ببطء ، بصوت رخو ، المراقبة التى تعمل فيها من سنوات .. هذا التنظيم والادارة .. ليس لها نشاط يذكر . وسياسة الدولة الآن هى زيادة الانتاج . أنا أفكر فى الغائها .
قلت له : الامر متروك لسعادتك وللوزارة ..
استدار قليلا بمقعده الدوار فأعطانى جانبه وهو يمسك الورقة التى فيها اسمى ويبعدها قليلا عن وجهه ناظرا اليها بلا اهتمام ثم قال أرى أنك تعرف لغات ..
لم أرد ، فقال بنفس اللهجة البطيئة وهو ينظر الى الورقة لا الى ، وكأنه يفكر فى اتخاذ قرار .. يمكن ان كانت معرفتك باللغات جيدة ان ننتدبك الى أحد مكاتب الوزارة فى الخارج ، فى أوروبا أو فى أمريكا . نحتاج هناك الى من يعرفون اللغات .
قلت أرجو أن أكون عند حسن ظن سيادتك ..
فترك الورقة واعتدل فى جلسته بالمقعد مرة أخرى ونظر الى وجهى للمرة الاولى وقال ولكن العمل فى مكاتب الوزارة بالخارج وظيفة حساسة جدا كما تعلم . تحتاج الى تحريات واسعة ، فهل لك ميول معينة ؟
قلت لا ياأفندم . ليست لى ميول معينة .

اضطجع فى كرسيه للخلف وقال بنفس اللهجة الرخوة الفاترة هذا غريب.. سمعت ان لك صلة بعناصر معينة فى اللجنة القيادية . ثم لوح بيده أمام وجهه وقال دون مبالاة هذه العناصر المخربة ستسحق بطبيعة الحال . الدولة الآن تتجه للانتاج والثورة لا ترحم من يعطل الانتاج . ثورتنا لديها وسائلها للتعامل مع العناصر المخربة .
لزمت الصمت فتنهد وقال تستطيع أن تنصرف ..
نهضت لاخرج ولكنه نادانى بعد خطوتين وقال وهو يتطلع فى أوراقه سأفكر فى ترشيحك للمكاتب الخارجية . ويحسن أن تقطع صلتك بالعناصر

المخربة ، اذا فعلت ذلك تكون قد خدمتها وخدمت نفسك .. مع السلامة ..
ولكننى وجدت نفسى أقول بنفس لهجته الهادئة لاتعتمد على فى ذلك ياعفيفى بك ، متأسف ياسلطان بك .
فلوح بيده وكرر مع السلامة ..
وخارج المكتب قلت لضحى التى التفتت نحوى بنظرة مستفهمة وأنا أشير بأصبعى للباب المبطن بالجلد ، قولى لهذا الـ .. الـ
ولم استطع أن أكمل . لكن ضحى ابتسمت فجأة وهى تتأملنى مثلما كانت تفعل فى القديم .

وكنت أسير فى أحد الممرات عندما رأيت سيد القناوى وسط مجموعة من عمال الوزارة بزيهم الرمادى وكان يتكلم وفى وجهه احباط ويأس . وبينما كنت أتوجه نحو سيد ابتعد العمال يفسحون لى طريقا وأطرقوا صامتين وقال سيد وهو وسط دائرتهم هل رأيت ياأستاذ ؟ أقنعوهم أن يقولوا فى التحقيق أنهم سافروا الى بورسعيد . لم يطأها واحد منهم ولكنهم سيقولون فى التحقيق أنهم ذهبوا الى بورسعيد وباتوا فى فندق من الدرجة الاولى ..

وضحك سيد ضحكة يائسة فالتفت للعمال وسألتهم لماذا ؟ .. أفهم أن ما يفعله الحاج سيد يفعله من أجلكم ، هذه الاموال التى سرقوها هى حقكم أنتم ، فلماذا تتركونه وحده ؟

قال عامل طويل أشيب وهو يشوح بيده موجها الحديث الى سيد ، لا الى أنا ، ياحاج أنت تسافر الى أوروبا وأمريكا وحجيت بيت الله . كل حى يشوف نفسه .

فالتفت سيد نحوه ، ولأول مرة أرى عضلات وجهه الصوانى ترتعش بالغضب وكور قبضته فخيل الى أنه سيلكم الرجل ، لكنه تمالك نفسه وقال بصوت متوتر ياأبى أنا حجيت الى بيت الله برجلى هذه .. وراح يخبط بقبضته على ساقه الخشبية خبطات قوية ومؤلمة تحدث صوتا مكتوما . وهو يقول بنفس الصوت الخفيض المتوتر هل سمعت عنى ياأبى أنى أسرق ؟ .. أرجع من الخارج بهدايا للكبار لكى أسافر مرة أخرى ؟ آخذ مكافآت من لجان ؟ .. هل سمعت أننى ؟ ثم ارتفع صوته فجأة وهو يقول ان لم تدافعوا عن حقكم فمن سيدافع عنه ؟

قال عامل آخر وهو يهز رأسه ربنا هو المدافع ياحاج سيد ، لسنا قد وكيل الوزارة . أكل عيشنا فى يده .

أمسكت سيد القناوى من ذراعه وابتعدت به عن مجموعة العمال وأنا أقول له لا تلمهم ياسيد . كما قالوا لك أكل عيشهم ..

فقال سيد لا ، ليست هذه الحقيقة ولكنه الطمع . أحينى اليوم وأمتنى

غدا كما يقولون . نسيبك الاستاذ عبد المجيد أعطاهم ايصالات قديمة التاريخ ليقدموها فى التحقيق تثبت أنهم اشتركوا فى الرحلة وأعطى كلا منهم خمسة جنيهات ليشهدوا أنهم سافروا الى بور سعيد ..

وتوقف سيد القناوى فجأة ثم تطلع الى وقال كان معك حق ياأستاذ . دخلت برجلى فى مشاكل لاأفهمها . هذه بلد سلطان بك وضحى هانم وكل انسان يعرف ذلك . حتى فى الاتحاد الاشتراكى طلبوا منى أن أسحب الشكوى وأن اصفى المسألة مع سلطان بك . ثم راح يضرب كفا بكف وهو يقول فى الأول يقولون لنا حاربوا الفساد فى كل مكان وحين ندلهم عليه يقولون لا نريد بلبلة فى الجبهة الداخلية . أكتب تقريرا والدولة تتصرف ..

ثم أمسك بذراعى وقال أنا لا أكتب تقارير ياأستاذ . أنا لست جاسوسا كما قلت لى فى مرة . أنا أقول علنا .. ولكن لماذا ؟ وما الغرض من ذلك كله ؟ .. الدولة تتظاهر بأنها تريد وهى لاتريد والشعب يتظاهر بأنه يريد وهو لايريد فماذا يمكن أن يفعل عبد الناصر ، وماذا يمكن أن أفعل أنا الصغير ؟ أنا تعبت ..

فقلت بهدوء أرجوك ألا تتعب ياسيد .. مازلت فى أول السكة . وكنا بالقرب من مكتب حاتم فقلت له تعال نأخذ رأى الاستاذ حاتم . فافلت سيد يده من يدى وهو يضحك بيأس وقال الاستاذ حاتم انتهى من زمان . الاستاذ حاتم لايدخل فى أية مشاكل . كله كلام فى كلام وساعة الجد يجد الانسان نفسه وحده .. الاستاذ حاتم عاقل مثلك ومثل بقية الناس ..

ثم تركنى وانصرف وهو يحجل بصعوبة ويمشى بسرعة مع ذلك مسندا يده كل فترة الى الحائط .. ذهبت أنا الى حاتم . كان أشد نحولا عما رأيته فى المرة السابقة ، كان يبتسم وهو لايرحب بى ولكن حركات يديه كانت عصبية بعض الشىء وحديثه كان عصبيا بعض الشىء . وحين بدأت أحكى له ما حدث قاطعنى وهو يقول أعرف كل شىء . أعرف كم أخذ كل واحد من العمال وأعرف ايضا من أين أتت النقود التى أخذوها . حتى هذه النقود التى يريدون أن ينقذوا بها أنفسهم أخذوها من أموال الوزارة ..

قلت وما دمت تعرف ذلك فما العمل ؟

فقال حاتم بلهجة قاطعة لا عمل . هذه ليست حكاية أيام الجمعة يتعامل فيها سيد مع الدولة ، أى مع لا أحد بالتحديد . هذه مسألة ، يدخل فيها بقدميه الى وكر الافاعى . كلهم أقوياء . كلهم يتساندون . فى الوزارة وفى

الاتحاد الاشتراكى وفى كل مكان . وعندما قلت ذلك لسيد قال لى أن قطعت رأس الحية ماتت . أن قطعت رأس سلطان بك فستنظف الوزارة . ولكن هذا غير صحيح .

كان حاتم يقول ذلك وهو يشبك أصابع يديه ويحركهما معا دون انقطاع ويتحاشى النظر فى وجهى ..

قلت ولكن أنت لماذا لاتفعل شيئا ؟ سيد معه حق ياحاتم لما قال لى أنك تغيرت . فهل ضحى هى السبب ؟

هز حاتم رأسه بشدة وقال لا . لم أعد أراها أن كان هذا يهمك . ولم أنسها ان كان هذا يهمك . ولكن ليست هذه هى المسألة .

قلت إذن لماذا تقول هذا الكلام الآن ياحاتم ؟ كنت تقول كلاما غير هذا عندما دخلت هيئة التحرير وعندما صممت أن تواصل لما انسحبت أنا . صدقنى كان جزء من نفسى سعيدا بك لأننا مازلنا نحاول . فلماذا الآن تخذلنى وتخذل سيد وتخذل نفسك ؟

قال حاتم لماذا الآن ؟ .. لاننى عرفت أن الحية لاتموت أبدا . اننا نحاول عبثا معها لانها تلتف حول الأرض ..

ثم قام حاتم وعاد وراء مكتبه وراح يتكلم وهو ينقر بأصابعه على المكتب نقرات رتيبة وهو يقول يحيرنى هذا الامر من زمن . منذ كنت أعد الدراسات العليا . تركت القانون ورحت أقرأ فى التاريخ وأسأل نفسى لماذا يحدث ذلك كله ؟ .. قلت سأحاول كل شىء ولن أستسلم ؟ .. ولكنى اكتشفت أن الظلم لايبيد .. ما الحل ؟ .. أن تحدث ثورة على الظلم .. نعم تحدث تلك الثورة .. يغضب الناس فيقودهم ثوار يعدون الناس بالعدل وبالعصر الذهبى . ويبدءون كما قال سيد ، يقطعون رأس الحية .. ولكن سواء كان هذا الرأس اسمه لويس السادس عشر أو فاروق الاول أو نورى السعيد فان جسم الحية ، على عكس الشائع ، لايموت ، يظل هناك ، تحت الأرض ، يتخفى ، يلد عشرين رأسا بدلا من الرأس الواحد الذى ضاع ، ثم يطلع من جديد . واحد من هذه الرءوس اسمه حماية الثورة من اعدائها . وسواء كان اسم هذا الرأس روبسير أو بيريا فهو لايقضى ، بالضبط ، الا على أصدقاء الثورة . ورأس آخر اسمه الاستقرار ، وباسم الاستقرار يجب أن يعود كل شىء كما كان قبل الثورة ذاتها رأسا جديدا . وسواء كان اسم هذا الرمز يزيد ابن معاوية أو نابليون بونابرت أو ستالين فهو يتوج الظلم من جديد

باسم مصلحة الشعب . يصبح لذلك اسم جديد ، الضرورة المرحلية ، الظلم المؤقت الى حين تحقيق رسالة الثورة . وفى هذه الظروف يصبح لطالب العدل اسم جديد يصبح يساريا أو يمينيا أو كافرا أو عدوا للشعب حسب الظروف ..

ثم نظر الى حاتم بعينين محتقنتين وقال كنت أظن أنه يكفى لاصلاح حال اسرتى أن ينصلح حال البلد فاكتشفت انه لابد أن ينصلح حال العالم ، وأن ذلك مستحيل . قل لسيد القناوى أن يتعلم هذا الدرس المهم جدا . لا تموت الحية أبدا .

نهضت وأنا أقول لن أقول له شيئا من هذا النوع . لديه الآن ما يكفيه من اليأس ، ولكن هل تعلم يا حاتم ؟ .. ربما يكون هو الوحيد بيننا الذى على حق . قد يكون ما تقوله صحيحا . قد لاينقذ من يطلب العدل العالم وقد لايقضى على تلك الحية ولكنه ينقذ نفسه .

فقال حاتم ـ حتى ولو دمر نفسه وهو يطلب العدل ؟

فقلت وأنا عند الباب نعم . ما سبب ذلك الجرح فى جبينك يا حاتم ؟ ألم يكن من الممكن أن يدخل فى جمجمتك ؟ ألم يكن من الممكن أن تموت وأنت تطلب العدل ؟ .. أنا أعرف يا حاتم أن طلب العدل مرض ، ولكنه المرض الوحيد الذى لا يصيب الحيوانات . كل ما فى الامر أننا ، أنا وأنت ، شفينا من هذا المرض فأصبحنا نرى أعراضه على الآخرين .

لزم حاتم الصمت ، وكان يميل برأسه نحو النافذة متطلعا فى شرود الى سقف الاذاعة الذى كان يزدحم الآن بجنود كثيرة يلبسون الخوذات ويتحصنون وراء أكياس من الرمل .

تركته ولكنى فى ذلك اليوم لم أذهب الى المقهى . كنت متعبا فخرجت من العمل وتوجهت الى البيت . وعندما فتحت باب الشقة بالمفتاح رأيت عبد المجيد يندفع خارجا من غرفتى . دخلت الغرفة فوجدت ادراجى مفتوحة واوراقى مبعثرة . وخرجت مندفعا فوجدت عبد المجيد يقف على باب غرفته الى جواره سميرة وهو يشبك ذراعيه أمام صدره . قال بصوت مرتفع قبل أن أتكلم ، أختك ستنجب طفلا ولابد أن نحمى انفسنا . ماذا لو دخلوا الشقة ليفتشوها ؟ .. من يعلم ماذا فى أوراقك هذه ؟ ولكننى كنت أتقدم منه وهو يقول ذلك ثم صفعته بجسمى كله لا بيدى وحدها فترنح

وصرخ وكنت الآن أسدد له الضربات وكان هو أيضا يضربنى فى وجهى وفى بطنى ولكنى فى النهاية كنت أجثم فوقه على الأرض وكانت سميرة تصرخ وكنت أقول : عن هذا كنت تفتش ياعبد المجيد أم عن شىء ينفع سلطان بك ؟ وجذبته من قميصه فوقف وكان وجهه شاحبا وكان يتمتم بتهديدات ولكنى رحت أجره حتى باب الشقة ثم فتحت الباب وقلت له لا تعد الى هذا البيت أبدا . فوقفت سميرة تسد الباب وقالت هذا بيتى كما هو بيتك . هذا بيت أبى . ولكننى تقدمت منها ورأت سميرة شيئا فى وجهى فتنحت عن الباب من نفسها وهى تصرخ من جديد فدفعت عبد المجيد الى الخارج وقلت لها احتملتك وأباك كثيرا ياسميرة .. احتملتك أربعين عاما : يكفى هذا . عاشت الحية طويلا فى هذا البيت أيضا . ها هو الباب مفتوحا فأخرجى معه ان أردت ..

وسمعت خطواتها على السلم وسمعت نداءها بصوت ملهوف عبد المجيد .. عبد المجيد ..

فأغلقت الباب وعدت أرى ما فعله بأوراقى . حاولت أن أتذكر ان كان بينها بالفعل شىء يخص سيد القناوى .

- ٢٠ -

لم يعد سيد يستطيع الانسحاب من القضية حتى لو أراد . كانت عجلة التحقيق تدور وكان مطلوبا فى كل مراحلها لانه هو الذى قدم الشكوى والمستندات . وكان يأتى الى مكتبى كل يوم أو كنت أذهب اليه فى ديوان الوزارة ونفكر فيما يمكن أن يقوله ونستشير أصدقاء فى الادارات القانونية ونجد أيضا من يتطوعون بتقديم النصيحة والمعلومات التى تدين وكيل الوزارة . ولكن كل شىء كان يجرى لصالح سلطان بك . شهد عمال الوزارة انهم سافروا الى بور سعيد ظهر الخميس وعادوامساء الجمعة وقدموا ايصالات اشتراكهم فى الرحلة . وشهد صاحب الفندق فى بورسعيد أن العمال باتوا عنده وقدم سجلات الفندق وأرقام الغرف التى شغلوها . وقال مدير الحسابات فى الوزارة انه تسلم قبل الرحلة اشتراكات العمال الرمزية ، خمسة وعشرين قرشا بالتحديد من كل عامل ، وقدم مستندات بالمبالغ وتواريخ توريدها الى الخزانة وكل ذلك ، وظهر أن كل شىء قد انتهى . وبدأ عبد المجيد وأعوان سلطان بك يتنقلون فى مكاتب الوزارة ويقولون أن سيد القناوى سيقدم للمحاكمة بتهمة الشكوى الكيدية ان لم يعتقل هو ومحرضوه من العناصر الهدامة لكى تتطهر منهم الوزارة والبلد . ولكن شيئا واحدا صغيرا حدث . كان هناك تحقيق آخر يجرى فى نفس الوقت فى شركة السياحة ، وكان وكيل النيابة هناك يجرى التحقيق بطريقة أخرى ، كان يطلب العدل فوجد أن سيارات الشركة لم تتحرك من مكانها ولم تنقل فى ذلك التاريخ عمالا الى بورسعيد ولا الى غيرها وأن كل الحسابات عن تنقلات تلك العربة مزورة ، فأعيد التحقيق من جديد فى الوزارة عندنا بوكلاء نيابة جدد .

ويومها جاء سيد القناوى الى مكتبى ليخبرنى بما حدث وقال بصوت متهدج لايستطيع أن يسيطر عليه أتعرف ماذا دعوت الله وأنا أمسك أستار الكعبة ؟ .. طلبت منه وكررت أن ينصرنى على الظالمين . أترى ؟ من كان يصدق أن يظهر الحق ..

وخشيت على سيد من صدمة أخرى فقلت له انتظر مع ذلك نتيجة التحقيق ياحاج . لاتتعجل الفرح . لم تنته القضية بعد ..

ولكن سيد قال لى شيئا آخر قبل أن يخرج . توقف لحظة عند الباب قبل أن يخرج وقال لى الظاهر أن صاحبتك ضحى هانم أصابها شيء بعد ما حدث ..

خفق قلبى بسرعة وهتفت بالرغم منى ماذا أصابها ياسيد ؟ ماذا أصاب ضحى ؟ فقال وهو يضحك أصابها شيء فى عقلها . قابلتنى فى الوزارة ولم تكن من قبل تقول لى كلمة . تتكبر بالطبع أن تكلم أمثلى . ولكنها لما رأتنى اليوم وقفت وقالت لى ياسيد أنت عتريس أو ادريس أو اسم من هذا النوع فتركتها وقلت لها ربنا يسامحك . نحن لانتشاجر مع النساء . لاتهمنا النساء . نحن نقطع رأس الحية .

وانصرف وهو يضحك . للمرة الأولى من وقت طويل اسمعه يضحك .

وكنت أغلق شباك المكتب متأهبا للانصراف بعد ظهر ذلك اليوم عندما شعرت بأقدام فى المكتب الخالى وعرفت دون أن انظر أنها هى . شممت العطر وسمعت قطرات المطر . ولما التفت رأيتها تقف عند باب المكتب فى الغرفة شبه المعتمة ، ولم تكن قد خطت الى تلك الحجرة منذ ذلك اليوم البعيد الذى حملت فيه أوراقها وانصرفت منها . كان نور صغير ينفذ من الشباك وظللت أنا متجمدا فى مكانى أنظر اليها وهى تقف عند الباب ، طويلة وهالة شعرها الاسود تحيط بوجهها . لم أكن أرى ملامحها ومددت يدى شاردا فانفتح جزء آخر من الشباك وبانت ضحى . كانت تلبس ثوبا أبيض وتتدلى من كتفها حقيبة سوداء تمسك مقبضها الطويل .

قالت وهى عند الباب هل تسمح لى أن أدخل ؟

فقلت ، وخرج صوتى خافتا ، سمحت لك من قبل أن تدخلى ياضحى فدمرت حياتى ، ولكن تعالى .

تقدمت خطوتين وراحت تنظر الى مكان مكتبها الخالى وقالت :

أصبحت الآن فى الغرفة وحدك .

فقلت نعم ، وحدى تماما .

جلست على أحد المقعدين أمام المكتب فجلست قبالتها وكان الشباك الموارب خلفها وراحت هى تتأملنى بابتسامة خفيفة على شفتيها . كان وجهها شاحبا ، خاليا من الاصباغ ، وكنت أنظر الى جبينها ، أكسو

الحاجبين المزججين بالشعيرات الغزيرة القديمة وأسترد ضحى ..
قالت ضحى بابتسامتها الغريبة أنت بالطبع الآن تكرهنى ؟
فقلت فعلت أنت ياضحى كل شىء لكى أكرهك ، لكنى لم استطع .
حولت وجهها الى مكان مكتبها الخالى وقالت جئت لكى أودعك . قدمت اليوم استقالتى من العمل أو بدقة اكبر طلب منى سلطان بك أن استقيل لانقاذه شخصيا ..

قلت ليس فى ذلك ما يدهش ياضحى بعد .. بعد كل ما حدث ..
فكررت بهدوء . نعم ليس فيه ما يدهش .
كان الشباك يصر قليلا وهو ينفتح ببطء وركزت عليه بصرى لكى اتجنب النظر اليها ، رأيت فوق سطح البيت أمامى حدأة تحوم تحت السماء الزرقاء ، تعلو مرفرفة بجناحيها الكبيرين وتختفى بعيدا ثم تنقض من جديد بجناحين ساكنين .

ولكن فجأة ، اذ أجلس أمامها شاردا ، هامدا ، مخدرا بحبها الذى لايبيد ، فجأة تصعد فى داخلى موجة الغضب الذى أختزنه من سنين ، عاتية لاترد فأهتف ولكن لماذا ياضحى ؟ لماذا كانت السرقة ولماذا كان وكر القمار والفساد ؟ .. ولماذا تركتنى فجأة ؟ ولماذا رفضت أن نتزوج ؟ .. لم أكن فاوست شريرا جدا كما اعتدت أن تقولى ولا كنت أنت البريئة الكاملة فأخذتك أنا الهلاك . كنا فى قلب الدوامة معا وكان يمكن أن ننجو منها معا . فلماذا هربت ياضحى ؟ لماذا عذبت حاتم ولماذا حاولت ان تدمرى سيد ؟ هل أنت أيضا جسم الحية الذى لا يموت ؟ وماذا تركت ياضحى من ايسيت ؟ ماذا تركت من حلمها الجميل ؟

وكانت اسئلتى تخرج متدافعة لاتنتظر جوابا من تلك الجالسة هناك بثوبها الابيض وجناحها الاسود . كنت أعرف أنى أوجهها للمجهول ولكنها لابد أن تخرج . وحين انتهيت أطرقت ضحى وقالت ايسيت رحلت . رحلت من أيام روما وربما قبلها . لكنها رحلت .
ثم رفعت الى وجها شاحبا وقالت رحلت من زمن ، ولما اختفت أخذت معها الازهار والاشجار .

مدت ضحى يدها أمام عينيها وقالت أخذت ايسيت منى العين التى ترى فلم تعد الأشجار غير اخشاب منصوبة والازهار غير أوراق متغضنة ..
قلت لماذا يا ضحى ؟

راحت ضحى تتلفت حولها كما لو كانت تبحث عن شيء ثم قالت بما يشبه الهمس وكأنما تحدث نفسها ولكنى أعرف أنها حية وباقية . أعرف أن أخاها الشرير ست يقهرها فتسقط فى الأرض ، ولكنها تبحث فى التيه عن أوسير . تتساقط أطرافها فى ذلك التيه حين تضل الطريق اليه . تصبح هى أيضا أشلاء مبعثرة ولكنها عندما تجد أوسير تكتمل من جديد . تتجنح مرة أخرى ومن أحشائها يولد الصقر فتيا وكاملا . يحلق أمامها بعينيه الناريتين اللتين تريان ست فى كل مكان وتطاردانه من كل أرض وتنطلق هى وراءه ، فرسا بيضاء جامحة فوق الصحارى الصفر ، من وقع خطاها ينبت الزرع من جديد وتتطاول الاشجار .

ثم قالت ضحى وهى تنظر فى وجهى بعينيها السوداوين اللامعتين ايسيت رحلت لكنها ستعود . كانت فى عينيها غشاوة ندية لكن الدموع لم تنزل .

وانفتح الشباك كاملا فاستضاءت الغرفة كلها بنور النهار ورأيت ضحى أمامى شاحبة تماما ولكن وجهها الخمرى يشرق جمالا لا عمر له فقلت فى حيرة ولكن لماذا رحلت ايسيت ياضحى ؟ ومتى تعود ؟

قالت ضحى وهى تبسط كفيها وتبتسم :

أنت لاتسأل ايسيت متى ؟ ولا تسألها لماذا ؟.

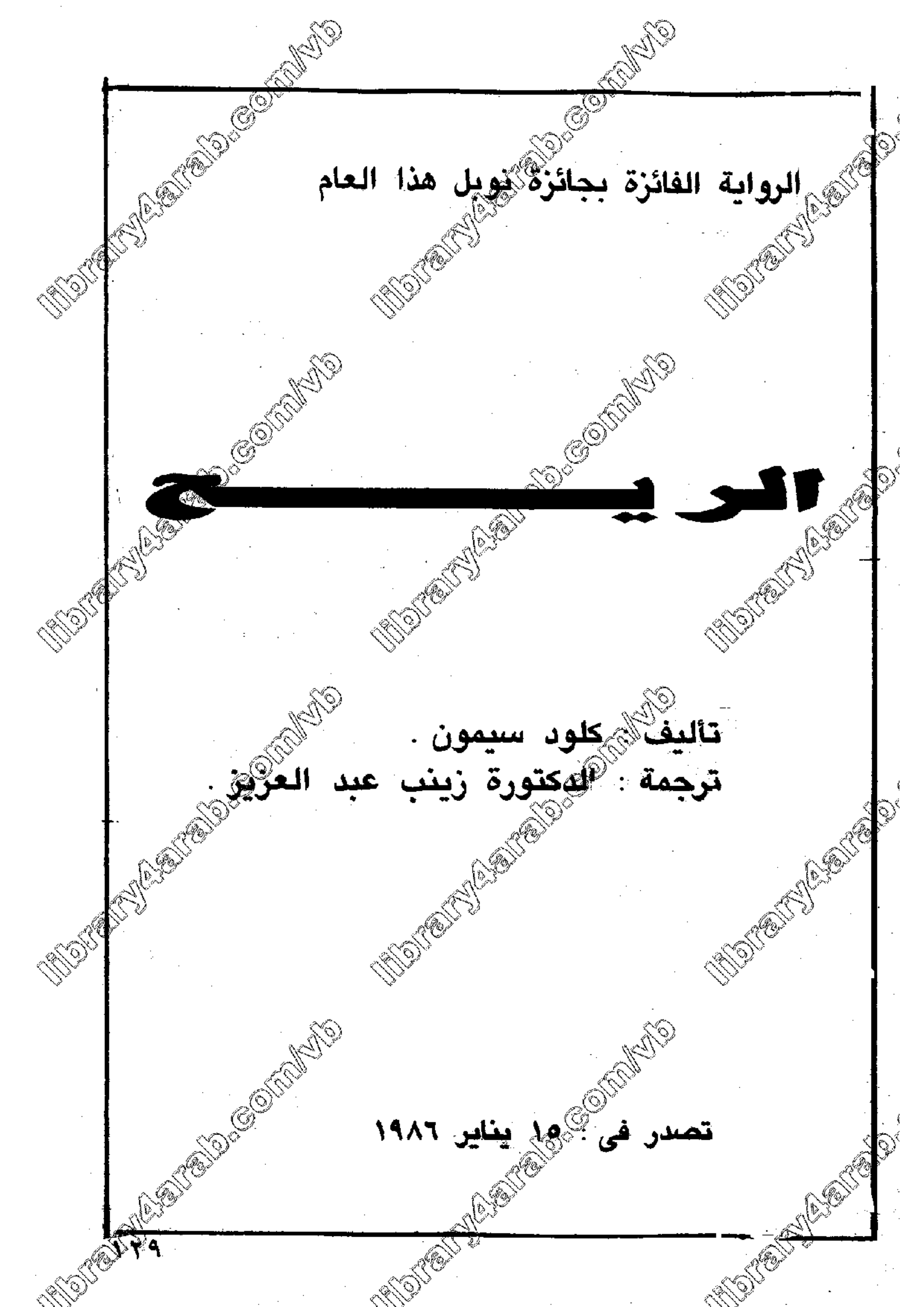
وفى السماء الزرقاء ظهرت سحب صغيرة شفافة ومتجاورة كطيور بيضاء بعيدة .

وبرز جزء صغير من قرص الشمس .

« انتهت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٥/٥٠٧٧

الترقيم الدولى : ٣ - ٢٠١ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

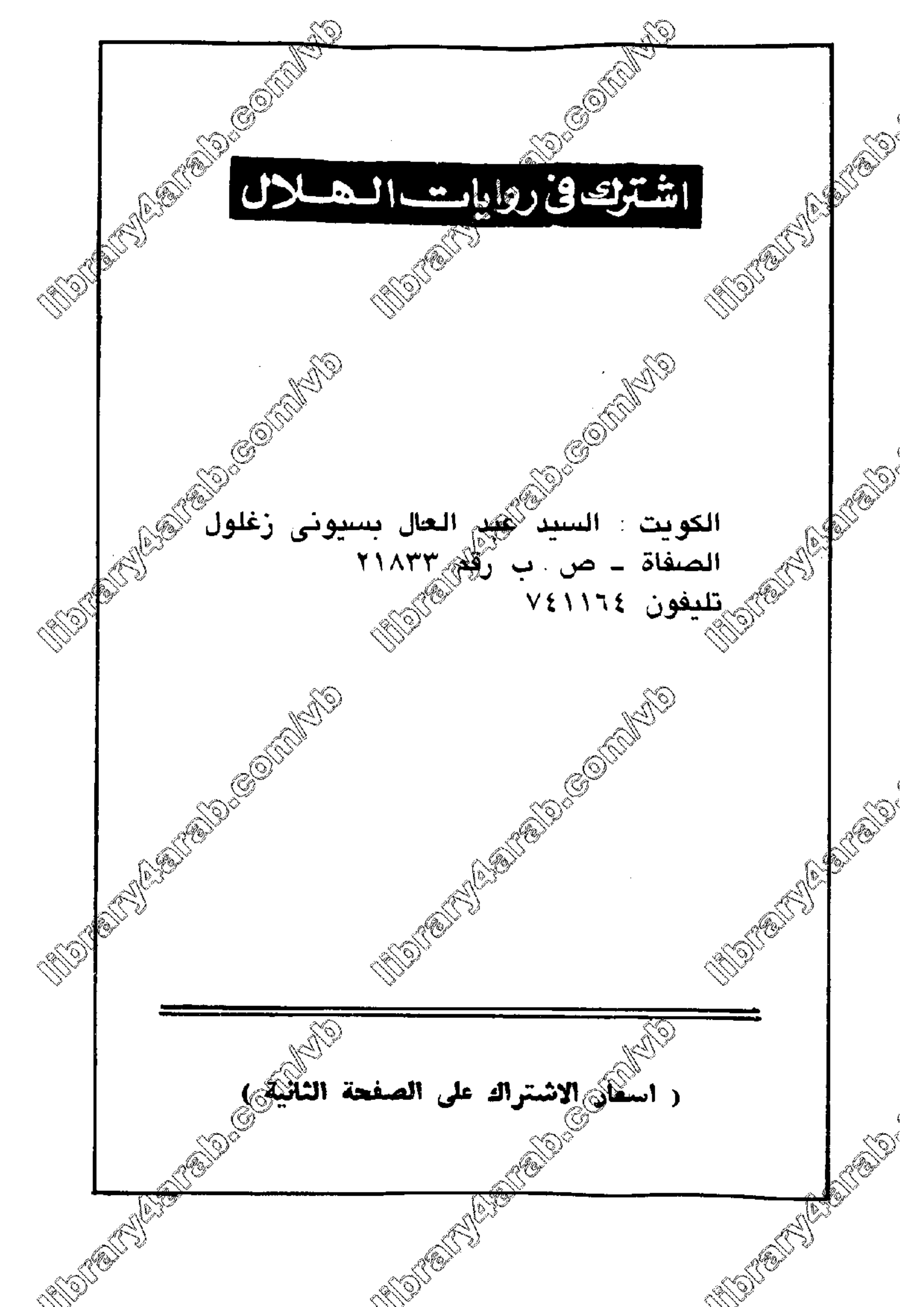

الرواية الفائزة بجائزة نوبل هذا العام
الريــــح
تأليف: كلود سيمون .
ترجمة : الدكتورة زينب عبد العزيز .
تصدر فى : ١٥ يناير ١٩٨٦

مجلة
الهلال

مرآة العقل العربى خلال قرن من الزمان

أول كل شهر

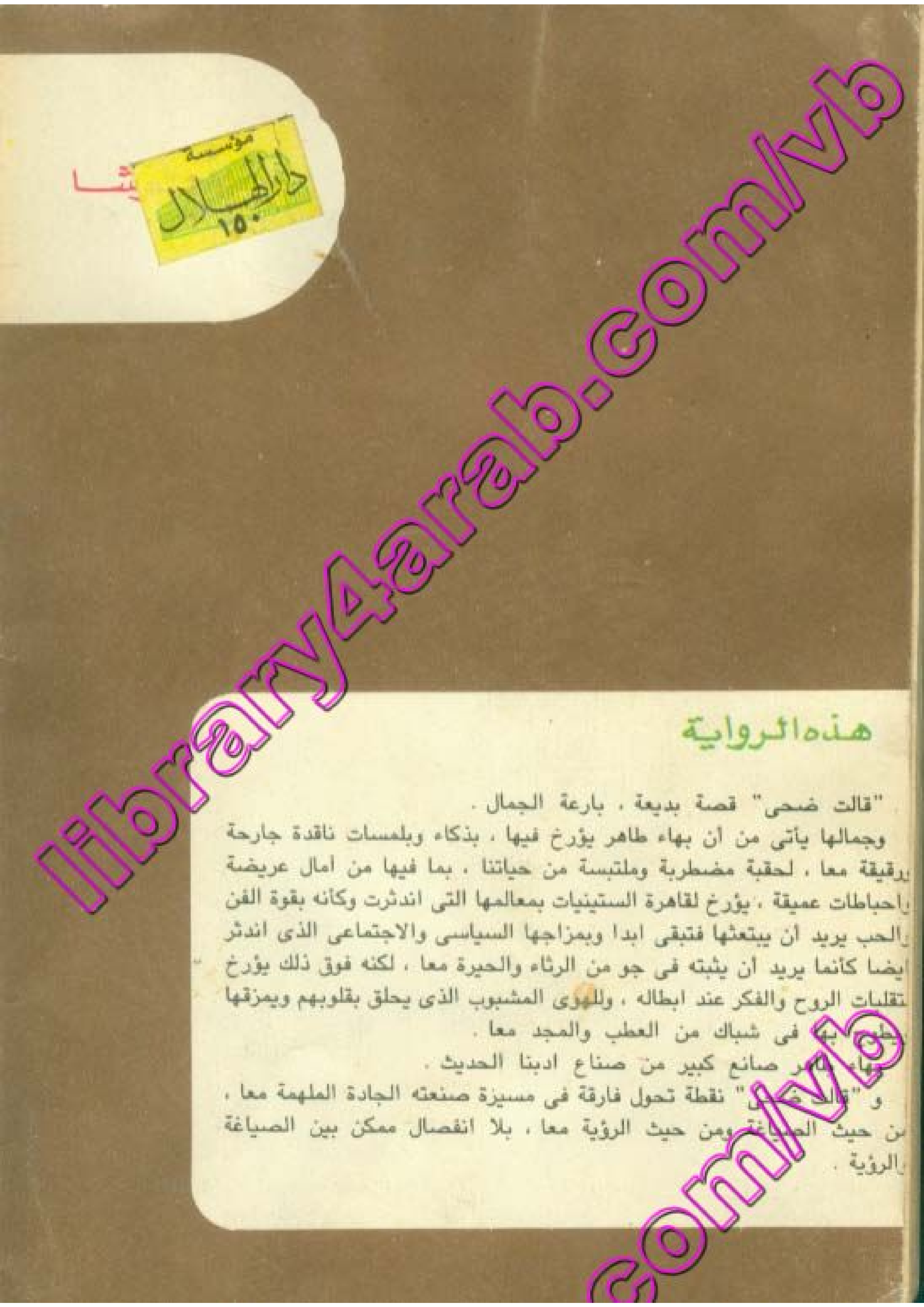
رئيس التحرير : مصطفى نبيل



اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول
الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
تليفون ٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



هذه الرواية

"قالت ضحى" قصة بديعة ، بارعة الجمال .

وجمالها يأتي من ان بهاء طاهر يؤرخ فيها ، بذكاء وبلمسات ناقدة جارحة ورقيقة معا ، لحقبة مضطربة وملتبسة من حياتنا ، بما فيها من امال عريضة واحباطات عميقة ، يؤرخ لقاهرة الستينيات بمعالمها التى اندثرت وكأنه بقوة الفن والحب يريد ان يبعثها فتبقى ابدا وبمزاجها السياسى والاجتماعى الذى اندثر ايضا كأنما يريد ان يثبته فى جو من الرثاء والحيرة معا ، لكنه فوق ذلك يؤرخ لتقلبات الروح والفكر عند ابطاله ، وللهوى المشبوب الذى يحلق بقلوبهم ويمزقها [illegible] فى شباك من العطب والمجد معا .

[illegible] صانع كبير من صناع ادبنا الحديث .

و "[illegible]" نقطة تحول فارقة فى مسيرة صنعته الجادة الملهمة معا ، من حيث [illegible] ومن حيث الرؤية معا ، بلا انفصال ممكن بين الصياغة والرؤية .